العالم الشعري لأبي القاسم الشابي

بين

الوجدان الذاتي ، والانتماء الوطني

دكتور

جمال عبد النبي حسانين

المدرس بقسم الأدب والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين

بدمياط الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي لا يليق بالحمد أحد سواه ، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه سيدنا محمد ، الذي أوتي جوامع الكلم ، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأتم السلام ٠

وبعد ،،

فيعد "أبو القاسم الشابي" واحدا من رواد الحركة الفكرية والأدبية في تونس هذه الحركة التي بدت تتطور ، وتثبت ذاتها ، وتتبلور ملامحها ، وتعبر عن وجودها في نهاية فترة الأربعينيات ، أي بعد رحيله بقليل .

وقد أعانه على تبوأ هذه المكانة عقل متفتح ، وفكر مستنير ، وطبع رقيق وعاطفة جياشة ، وانفتاح على المجتمع من حوله ، وحب للثقافة العربية ، ومواكبة لظواهرها الأدبية ، في كل من مصر، ولبنان ، والعراق .

ولعل اتصاله بشعراء جماعة " أبولو" قد أتاح له فرصة التواصل الفكري والأدبي مع كثير من أدبائها ، متأثرا حينا ، ومؤثرا حينا آخر، ومستوعبا فكرهم ورؤاهم ، ومضيفا إلى منهجه الإبداعي والفكري والتأملي الكثير والكثير .

كما أن حبه للإطلاع جعله يجمع في قراءاته بين التراث القديم في أزهى عصوره ، وبين روائع الأدب الحديث ، بمصر والعراق والمهجر ، وقد تأثر بهؤلاء وأولئك كما قرأ لشعراء النهضة الشعرية وزعماء مدرسة الإحياء

"البارودي ، وشوقي ، وحافظ ، ومطران " فتمكن بفضل حبه للمطالعة من قراءة كل ما وقع عليه من شعر قديم وحديث إلى جانب الأدب الغربي المنقول.

هذه القراءات الواسعة والثقافات المتعددة هي التي هيأت " للشابي" أن يتبوأ مكان الريادة للنهضة الفكرية والأدبية في وطنه تونس .

وسوف نحاول في الصفحات التالية أن نستكشف العالم الخاص بهذا الشاعر هذا العالم الذي خلق منه شاعرا وجدانيا ، وثائرا وطنيا .

وسأتناول في هذا البحث النقاط التالية :

أولا : مدخل إلى عالمه ٠

ثانيا : الوجدان الذاتي ٠

ثالثا : الانتماء الوطني ٠

رابعا : العالم الشعري لأبي القاسم رؤية فنية ٠

ثم خاتمة بأهم نتائج البحث ٠

وقائمة بالمصادر والمراجع ٠

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ٠

أولا : مدخـل إلى عـالمه ٠

لعل الكثيرين من ناشئة الأدب من المهتمين بـه وبفنونـه لا يعرفون عن عالم " أبي القاسم الشابي"وفنه سوى نتف يسيره ،من أنـه أحد المواهب الشعرية الشابة التي قدمت للقراء عن طريق مجلة "أبولو"وكان لجماعة أبولو" وزعيمها الدكتور"أحمد زكي أبو شادي" الفضل الكبير في تقديمه للمجتمع الأدبي ، ولعلهم معذورون في ذلك إلى حد كبير ، إذ أن الزمان لم يفسح لهذا الشاب من العمر ما يحقق لـه وللأدبـاء صلة قويـة بـه، ومعرفـة أكيدة لـه ؛لأنـه قضـي قبل أن يكتمل نضجه ،وذوي عوده الغض النضير وهو في ريعان الصبا وزهرة الشباب .

"أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الشابي" ولد في قرية "الشابية" من نواحي "توزر"عاصمة الواحات التونسية في الجنوب في ٢٤ من فبراير ١٩٠٩ م وتوفى سنة ١٩٣٤ م فقد عاش فيما بين الحربين العالميتين ، الأولى والثانية أيام كان العالم العربي يتعثر في خطاه ، بين حاضره الكئيب ، وماضيه الأليم في ظل سيطرة الغرب على الشرق [١]

كان والده الشيخ محمد بن أبي لقاسم الشابي من خريجي الأزهر وبه درس أولا ، إذ ظل بـه سبع سنين تتلمذ فيها على يد الشيخ " محمد عبده "ثم درس بجامع الزيتونة سنتين حصل بعدهما على شهادة التطويع [٢] ثم عين قاضيا في

---

(١) ديوان أغاني الحياة أبي القاسم الشابي صـ ٨ ط ١ منشورات دار الكتب الشرقية بونس ١٩٥٥ م وانظر الأعلام لخير الدين الزركلي جـ ٥ صـ ١٨٥ طبع دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٩٩٨ ٠

(٢) التطويع هي إجازة نهاية الدراسة بالكلية الزيتونية في ذلك الوقت .

السنة الأولى من ولادة " أبي القاسم "ثم ولي القضاء في كثير من البلدان التونسية ٠

وكان - رحمه الله- صادق التقى ، قوي العقيدة لا يخشى في الحق لومة لائم ، له غيرة على شئون الإسلام والمسلمين ، يقول "أبو القاسم " متحدثا عنه في محاضرته التي ألقاها في النادي الأدبي بتونس: "إنه أفهمني معاني الرحمة والحنان وعلمني أن الحق خير ما في هذا العالم ، وأقدس ما في هذا الوجود "[١]

لم ينشأ " أبو القاسم " بمسقط رأسه " الشابية"بل خرج عنها في سنيين عمره الأولى ، إذ لم يكد يعرفها بسبب جولات والده وتنقلاته المتعددة ، فقد طاف الأب وجال قرابة العشرين عاما ، ضرب خلالها البلاد التونسية طولا وعرضا متنقلا بين أرجائها ، وقد عملت هذه الرحلات المتكررة في شباب"أبي القاسم"على تضخم تجربته ، وإذكاء شاعريته ، وتدفق موهبته ، فأفاد منها ما يفيده كل عابر سبيل متيقظ واع ، وكان هذا التجوال ، وتلك الرحلات انطلاقة له من حدود البيئة الضيقة ، إلى الآفاق الفسيحة الرحبة وأكسبه هذا التطواف تونسية إنسانية الآفاق [٢]

قدم " أبو القاسم" إلى العاصمة التونسية سنة ١٩٢٠ م للدراسة بجامع الزيتونة في الثانية عشرة من عمره ، وقد تكون سريعا ، وقال الشعر باكرا بعد أن كون لنفسه ثقافة عربية خالصة في معظمها جمعت بين التراث العربي في

---

(١) من محاضرة له بعنوان " الخيال الشعري عند العرب ، وقد أهداها لوالده – ديوان أغاني الحياة صـ ٩ .

(٢) ينظر ديوان أغاني الحياة صـ ٩ ، ودراسات في الأدب العربي المعاصر صـ ١٤٣ .

أزهى عصوره ، وبين روائع الأدب الحديث بمصر والعراق وسوريا والمهجر إلى جانب ما أفاده ووقع عليه من أدب غربي منقول .

انطبع في خيال "أبي القاسم " وعن طريق مطالعاته وبخاصة للشعراء المجددين صورة فذة للشعر ، فيها تحرر من القديم سواء أكان في شكل القصيدة أم في مضمونها ، وقد وضع هذا الشعر وهو يواصل دراسته في صميم حركات الإصلاح التي كانت تعتلج بها النفوس آنذاك ، من بعث لحركة الشبان المسلمين، ودعوة لتجديد الجهاز الثقافي ، ومناصرة لحركة تحرير المرأة[١] .

ولم يكن"أبو القاسم"يستنزل الشعر ، ولكنه كان يفيض عليه مهاجمة تمنعه الراحة والنوم ،فيصوغ القصيدة بيتا بيتا ، ولا تفارقه تلك الحال حتى يستفرغ ما جاش بضميره شعرا محكما ،ثم ينام مطمئنا كأنما نزع عن ظهره عبئا ، حتى إذا استيقظ في الغد متأخرا وجدها على طرف لسانه ، ونسخها عن ذاكرته ، وربما طاش عنه الشطر فلا يرضى أن يعوضه أبدا ، وتبقى القصيدة بتراء في جيبه لا يجسر على ترقيعها إلا أن يتذكره ولو بعد شهر فيتمها وينسخها[٢]

وفي سنة ١٩٢٩ م نكب بوفاة والده الحبيب إلى قلبه ، بعد أن تجرع غصص مرضه ، وطفحت الكأس بموته ، فاطلع بأعباء كبيرة ومسئوليات

---

(١) ناصر "أبو القاسم " صديقه " الطاهر الحداد " واضع كتاب "امرأتنا في الشريعة والمجتمع "الذي أثار ردودا حادة ، وسخطا عنيفا في الأوساط التونسية .

(٢) من مقال للأستاذ زين العابدين السنوسي يصف طريقته في وضع قصائده الديوان صـ ١٠ .

جسيمة ، واختار طريقا وعرا ، إذ رضي بحياة بسيطة على رأس أسرته دون أن يلج باب الارتزاق من المناصب الحكومية ، وفي السنة نفسها اعتلت صحته وأصيب بداء تضخم القلب ، وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وعلى الرغم من نهي الأطباء له عن مزاولة العمل الأدبي لم يقلع عن عمله الفكري ، وواصل نتاجه الأدبي شعرا ونثرا ، ونشرت له في مجلة "أبولو"قصائد عملت على التعريف به في الأوساط الأدبية العربية ، ثم شرع في جمع ديوانه "أغاني الحياة" لطبعه بمصر فانتسخه بنفسه مستعينا ببعض رفاقه ، لكن المنية قد أعجلته وحالت بينه وبين ما أراد ، فقد انتابه المرض بغاية الشدة في يوم ٢٦ من أغسطس ١٩٣٤ م وفي فجر يوم ٩ من أكتوبر ١٩٣٤ فارق الحياة ، وقبر جثمانه ببلدته "توزر" وهو في ربيع العمر لم يطو الخمسة والعشرين عاما إلا أن هذه المدة القصيرة في تاريخ موهبته الأدبية ونموه الفكري كانت ذات خطر عظيم ؛ لأن هذا المذهب الذي ذهب إليه في نظم أشعاره مذهب فذ لم يظهر فيه في الشعر العربي إلا النادر[١]

و"الشابي" شاعر مطبوع استطاع في لباقة وسهولة أن يصور لنا خلجات النفس الإنسانية ، والطبائع البشرية ويصقلها في أداء واف ، وتركيب سليم ،كما استطاع أن يتعمق في تفسير الأحاسيس الجياشة التي فاضت بها نفسه تفسيرا جعلنا نقف معجبين بهذه العبقرية الملهمة الممثلة في شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ٠

---

(١) ينظر الشابي في مرآة معاصريه ١١ أبو القاسم محمد كرو صـ ٢٣ ط١ بيروت ١٩٩٤ م وديوانه أغاني الحياة صـ ١٢ .

ومع هذه الأيام القليلة في حساب السنين والأعمار يعد "الشابي" علما بارزا من أعلام شعرنا العربي المعاصر ، توفرت فيه كثير من الصفات التي لم تتوفر للكثيرين ، صفات أدبية : من قوة بديهة ، وإحساس مرهف ، ورقة طبع وعاطفة جياشة ، وصفات إنسانية: إذ كان - رحمه الله – نقي السريرة ، طيب القلب ، حييا ، محتشما ، تعرف منه صراحة وحزما وقوة ،لا يكن لأحد ما حقدا كما كان محبا لبلاده ، صادق الوطنية ، يؤمن بأن لقادة الفكر والأدب رسالة، فلا عجب إذ بكته تونس والجزائر ، ولا غرو إذ قام الشعراء والأدباء على تأبينه [١]

وفي ذكرى بطل العروبة وتونس يشيد "فوزي العنتيل " في قصيدته " أصداء من تونس"بفضله على تونس وعلى غيرها من البلاد العربية فيقول :- [١]

طار في حلمها الجميل شعاعا وتراءى في ليلها أسطورة
فأضاءت به السفـــوح وغنت بأناشيده الريــاض المنيرة
طائر فـرّ من نعيــم الفراديس فأشجى أغصانه وطيوره

ثم يقول :-

فوق مزماره تذوب الشكايات فتندي بها الليالي الضريرة
وبأنغـــامه تجف الجراحات لهيبا على الربا المقرورة

ويقول :- [٣]

أيها الشاعر الإلهي رفرف بجناحيك بـــالعبير الضاحي
فغدا تورق اللحون وتسري وشوشات الربيع في الأرواح

---

(١) ينظر مجلة أبولو ، المجلد الثاني ١٩٣٣ م ١٩٣٤ صـ ٤٤١ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ م

(٢) ديوان عبير الأرض فوزي العنتيل صـ ٩٠ ، ٩١ ط١ دار الفكر العربي ١٩٦٥ .

(٣) السابق صـ ٩١ .

ثانيا : الوجــدان الـذاتي ٠

وأعني به الوجدان الذي يعبر الشاعر من خلالـه عما يهمـه فـي ذاتـه ممـا هـو صدى لما في نفسه من أفراح وآلام ، وهموم وآمال مما هو انعكاس لأحداث الحياة .

وهو وجدان رومـانتيكي[١] فـي نزعتـه ، إنسـاني فـي توجهـه[٢] ينصـرف فيـه جهد الشاعر إلى التعبير عن مشاعره بعد أن يتمثلها وقد عاينها بفكره ، وتأملها بوعيـه وحولها إلى مادة تعبيرية ، بعد جهد وعمل ومثابرة ، لا عن مجرد استسلام للخـواطر والأحلام [٣]

وقـد عـرف " الشـابي " شـاعرا وجـدانيا ، ولكنـه وجـدان الـوطني الثـائر ورومانسيا بأصدق معاني الكلمة وأعمقها ،إذ ليس لهذا الشاعر الذي ترك موضـوعات المدح ، والهجاء ،والرثـاء ، و مـا يشبهها ، والتـي ورثناهـا عن الأدب العربـي القديم وعرفت بشعر المناسبات ، ليس لهذا الشـاعر من توصـيف أصـدق ولا ألصـق من كونه وجدانيا ذاتيا ؛ لأنه بدأ من نفسه ومن

---

(١) كانت الرومانتيكية تدل على الإنسان الحالم ذي المزاج الشعري المنطوي على نفسه ، ثم امتد معناها لتشمل شبوب العاطفة والاستسلام للمشاعر والاضطراب النفسي والفردية الذاتية ينظر الرومانتيكية د\ محمد غنيمي هلال صـ ٤ طبع دار نهضة مصر ١٩٧١ م .

(٢) إن أولى المقاييس التي ينبغي أن يقاس بها الشعر الذاتي هو المقياس الإنساني ، ونعني به أن تكون معاني الشعر مما يتفق والشعور الإنساني الرفيع ومما يتفق مع الطبيعة الإنسانية السامية من خلال ما يحدثه في النفس من أثر وما يوحي به من شعور ، وقديما جعل صاحب العمدة هذا المقياس أساسا أصيلا من أسس نقد الشعر حين قال (وإنما الشعر ما أطرب ، وهز النفوس ، وحرك الطباع فهذا هو باب الشعر الذي وضع له ، وبني عليه لا ما سواه) العمدة في محاسن الشعر وآدابه نقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد جـ ١صـ ١٣ دار الطلائع للنشر والتوزيع .

(٣) ينظر النقد الأدبي د \ محمد غنيمي هلال صـ ٣٦١ طبع دار نهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع الفجالة القاهرة د \ت .

مشاعره الذاتية [١] وكان أرقى شعور صدح به وعبر عنه هو حبه وعواطفه ٠

وإذا كان " الشابي"شاعرا وجدانيا من الطراز الأول ، فإن الوطن لم يكن في أي وقت من الأوقات بعيدا عن ضميره ، ولم يغب عن فكره وخاطره، بل تحمل في سبيله الآلام والصعاب ، ومشقات الواجب والالتزام ٠

إذ أن الشاعر الوجداني عندما يقرر التصدي لقضية كبرى كقضية الدفاع عن الوطن وهي قضية مصيرية بلا شك يكون على المحك ، ويكون موقفه دقيقا يقتضيه أن يحقق توازنا معقولا بين وجدانه وما يتطلبه من صور شعرية وخيال وظلال ، وقدرة على الإحياء ، وما يتطلبه موقفه الوطني من حرارة في القول وحماسة في التعبير ، ونبرة عالية في الإيقاع ٠وغير ذلك مما يتطلبه صاحب الوجدان الثائر[٢]

وقد حاول "الشابي" أن يقيم هذا التوازن بين الالتزام والفن ، بل نقول إنه مزج بينهما مزجا يجمع بين الإحساس بطبيعة القضية ومقتضيات الفن في تفاعل حي نابض يعكس وجدانا ذاتيا حالما ، وانتماء وطنيا قوميا ، إذ لم يكن "الشابي" شاعرا رومانسيا حبيس أحزانه وتأملاته الذاتية بل كان محبا للحياة متفاعلا مع واقعها مشاركا في التيارات الثورية المؤمنة بقوميتها وقدسيتها ٠

---

(١) يقول الشابي مؤكدا على هذا الاتجاه وداعيا إليه ، في صـ ٣٣ من ديوانه :-

لا أنظم الشعر أرجو	بـه رضـــاء الأمـير
بمـدحة ، أو ثنـــاء	تهـدى لرب السرير
حسبي إذا قلت شعرا	أن يـرتضيه ضميري

(٢) ينظر في الأدب العربي الحديث د \ عبد القادر القط صـ ٣١ دار غريب للطباعة والنشر القاهرة ٢٠٠١ م ٠

المرأة والحـــب ٠

تعد العلاقة العاطفية في حياة "الشابي" علاقة غامضة إذ لا توجد معلومات دقيقة عنها ، غير أن الكتاب الذين عاصروه وعرفوا كثيرا من حقائق حياته[١] يؤكدون أنه عرف الحب في شبابه الأول وكانت حبيبته فتاة تربى معها في بلدته "الشابية" وعندما سافر "الشابي" إلى تونس للدراسة استولى على هذه الفتاة غم شديد أدى بها إلى الموت ، بسبب فراق حبيبها ،وقد حزن الشاعر عليها حزنا عميقا كان فيما يقول صديقه "زين العابدين السنوسى"سببا من أسباب مرضه الذي أدى به إلى الموت ، وإن كان "الشابي" قد تزوج بعد ذلك وأنجب من زوجته قبل أن يموت طفلين يعيشان حتى اليوم[٢] ٠

وإذا كان موضوع المرأة والحب يأتي على رأس الموضوعات التي برز فيها شعر " الشابي" فإن ظروف حياته القاسية التي انغمس فيها جعلته كغيره من شعراء أبولو [٣] يفر إلى رحاب المرأة ليطفئ بحبها جمرة البؤس والحرمان المتقدة في نفسه ' ويتخذ من حبها ملاذا يحتمي به من ظلم المجتمع له، وتنكره

---

(١) من هؤلاء الكتاب الأستاذ الطاهر الحداد ، وصديقه الأستاذ زين العابدين السنوسي ٠

(٢) ينظر أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة صـ ٣٩ ٠

(٣) لم يصل "الشابي" في علاقته بالمرأة والحديث عنها ما وصل إليه د \ إبراهيم ناجي ففي دواوينه الثلاثة "وراء الغمام " وليالي القاهرة "والطائر الجريح " نحس بوضوح أن ما قاله "ناجي "هو خير ما قيل من شعر في المرأة والظمأ إليها ،إذ كان روحا عاشقا متعطشا دائما للحب ، ينظر محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي د \ محمد مندور الحلقة الثانية ، صـ ٥٦ مطبوعات معهد الدراسات العربية ١٩٨٧ ٠

لدعواته وأفكاره ، وإن كان "للشابي"وعلاقته بالمرأة ونظرتـه إليهـا موقف يكـاد يكون مغايرا إلى حد كبير لسائر شعراء أبولو ٠

ظل "الشابي" يغني للحب حتى آخر لحظة من حياتـه ، وغنـاؤه هو غنـاء الحرمـان والشوق إلـى مثل أعلـى للمرأة لم يتحقق فـي حياتـه ؛ لأن المرأة التـي أحبهـا هـي امـرأة مـن صـنع خيالـه السـامي ، امـرأة مثاليـة تتكـون مـن الأحـلام والأطياف والزهور ، وهي ليست من جسد بل من روح شفافة ، وحبهـا لـيس حبـا حسيا بل حب روحي شفاف يسمو فوق نـداء الغريـزة ، ويختلـف عن ذلك الحب الذي يعرفه سائر الناس [١]

ففي قصيدته الذائعة "صلوات في هيكل الحب"صورة شفافة رقيقـة للمرأة وكأنها تهبط من عـالم ملائكـي ، أو سـحري لم يعرفـه البشـر، إذ كـان يـرى فـي المرأة الجميلة سحرا هو سرها وعالمها ، يقول وأصفا إياها :- [٢]

عــذبة أنت كالطــفولة كالأحــلام كاللــحن كالصبــاح الجــميل
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كــالورد ، كــابتســـام الوليد
يالــها من وداعــة وجـــــمال وشبــاب منــعم أملـود٠٠!
يالها من طهــارة تبعث التقديــس فــي مهــجة الشــقي العنـــيد

ومن منطلق هذا الإحساس كان يرى في الحب سر وجوده ، وغايـة آمالـه ونورا يهبط من عالم السماء ؛ ليضـئ الآفاق، يقول :- [٣]

أيها الحب أنت سر وجـــودي وحياتي وعزتي وإبائي
وشعاعي ما بين ديجور دهري وأليفي وقرتي ورجائي

---

(١) ينظر أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة صـ ٣٦ ٠

(٢) ديوان أغاني الحياة صـ ١٢١ ٠ (٣) السابق صـ ٤٥ ٠

وأحيانا أخرى كان يرى فيه همومه وشقوته وعنائه ، يتجرع بسببه كؤوس الدموع والأحزان ، يقول :- [١]

أيها الحب أنت سر بلائي وهمومي وروعتي وعنائي

ونحولي وأدمعي وعذابي وسقامي ولوعتي وشقائي

أيها الحب قد تجرعت بك الحز ن كؤوسا وما اقتنصت رجائي

وكما رأى "الشابي" في حبه كل هذه المعاني التي تبدو متناقضة كأنها نفسه الهادئة الهادرة ، رأى في المرأة من خلاله مصدر الإلهام الفني ، والبعث الروحي ، فهي تخلق في نفسه صور الجمال والآمال ، وتمحو بآثار حبها أعباء الحياة ، والهموم والآلام ، لذا وجد فيها نعيمه ولذته ، وأنسه وسلوته ، فهام بها روحا ووجدا ، لا متعة وجسدا ، يقول في قصيدته التي جعلها بعنوان أراك :- [٣]

أراك فتخلو لدي الحياة ويملأ نفسي صباح الأمل

وتنمو بصدري ورود عذاب وتحنو على قلبي المشتعل

ويفتنني فيك فيض الحياة وذاك الشباب الوديع الثمل

وإذا كان الحب عند "الشابي" حبا مثاليا ، وعاطفة مقدسة يتجه بها إلى كيان المرأة فإن هذا الحب المثالي هو حب حزين متشائم ؛ لأنه يصطدم في كثير من الأحيان بعقبات تجعل منه حبا يائسا فاجعا يقترن غالبا بالموت !تلك العقبة التي تعترضه وتحوله إلى مأساة .[٣]

ففي شعره نجد هذه الظاهرة بوضوح في كثير من قصائده يقول في قصيدته "الذكرى :- [٤]

---

(١) السابق صـ ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) السابق صـ ١٢٥ .

(٣) ينظر أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة صـ ٤١

(٤) ديوان أغاني الحياة صـ ٥٣ .

كنــا كزوجي طــائر في دوحــة الحــب الأمــين

نتلو أنــاشيد المنى بين الخــمائــل والغــصون

متغردين مع البلابل في السهول وفــي الحزون

حتى إذا كدنا نرشف خمرهــا ، غضب المنون

فأراق خمــر الحــب في وادي الكــآبة والأنـين

وشدا بلحن الموت في الأفق الحزين المستكين

وفـي قصـيدة أخـرى عنوانهـا " جـدول الحـب "يعبـر عـن نفـس المأسـاة : مأسـاة اقتـران الحـب بـالموت ، وذبـول زهـور الربيـع علـى يـد الخريـف القاسـي وجفاف أنهار المحبة التي امتدت إليها يد العدم يقول :- [1]

قد كـان لي مــا بين أحلامي الجميلة جـدول

يجـري بــه مــاء المحبة طــاهــرا يتسلسـل

تسعى به الأمــواج باسمة كـــأحلام الصبـا

قد كـان ذلك كـلـه بـالأمـس ! بالأمس البعيـد

والأمس قد جرفته مقهورا يد الموت العتيـد

على هذه الشاكلة كان الحب عند "الشابي" حبا وجدانيا عاطفيا ،اقترن في ذهنه بمعنى الحياة ، أو كأنه مرادف لمعنى الحياة ، كما كان حبا مثاليا مسرفا في الخيال،يصور في المرأة في هالة من التقديس والكمال ، وهو حب تراجيدي حزين يؤكد نزعة الحزن التشاؤم التي سيطرت عليه وجعلت الحب يقترن عنده بالموت ، بل إن الموت لا يصبح موتا في زعمه إلا لأنه يقضي عل الحب ٠

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ٦٩ ٠

الهروب إلى الطبيعة ٠

ونظرا لما كان يحسه "الشابي" من غربة في الحياة ، واصطدام طموحه بأشجان مرضه ، واصطراع دعواته الوطنية مع واقع الحياة المرير وجدناه يهرب من تلك الحياة إلى الطبيعة حينا ، وإلى ماضيه وذكرياته حينا آخر، نائيا بنفسه عن صخب الحياة وضجيجها ، حالما بوحدته وانفراده ، متمنيا أن لو عاش عيشة العصافير والطيور، بعيدا عن أحزان شعبه ، الذي استكان لغاصبيه واستسلم لقاهريه ، وأصبح كالجماد الذي لا يصغي لقول ، ولا يهتز لنداء ليلتمس من كل ذلك عزاء لنفسه ، وسلوانا لفؤاده المتعب الواهي يقول :- [1]

ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا ... سعيدا بوحدتي وانفرادي
ليس لي من شواغل العيش ما يصرف ... نفسي عن استماع فؤادي
أرقب الموت والحياة وأصغي ... لحديث الآزال ، والآباد
وأغني مع البلابل في الغاب ... وأصغي إلى خرير الوادي
لا أعني نفسي بأحزان شعبي ... فهو حي يعيش عيش الجماد
وبعيدا عن المدينة والناس ... بعيدا عن لغو تلك النوادي
فهو من معدن السخافة والإفك ... ومن لغو تلك النوادي
أين هو من خرير ساقية الوادي ؟ ... وخفق الصدى وشدو الشادي؟
وحفيف الغصون نمقها الطل؟ ... وهمس النسيم للأوراد؟
هذه عيشة تقدسها نفسي ... وأدعو لمجدها وأنادي

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١١٤ ٠

إنهـا أمـاني "الشـابي" فـي عالمـه الجديـد ، يـود ألا يسـمع إلا همـس قلبـه ومناجاة نفسه ، تغنيه البلابل ، وتناجيه النجوم ، ويعيش للفن والجمال بعيدا عن الآلام والأوهـام ، ولكنـه لـن يسـتطيع أن يحقـق أحلامـه لأن هنـاك قيـودا تمنعـه وواجبات تكبله ، من أجل هذه الواجبـات سيضـحي بأحلامـه ، وسـيحيا بين النـاس وسيسكن مدنهم ، ويحيـا فـي عـالمهم ، مكرهـا مرغمـا ، يصـغي لـدنياهم السـخيفة ويحيا بأرضـهم المقفرة المجدبة ، يقول :- [١]

فـأنـا المكبل فـي سـلاسـل حيــة ضحيت من رأفي بها أحلامي
وأنا الــذي سكـن المـدينة مرغما ومشى إلى الآتي بقـلب دامي
يصغي إلى الدنيا السخيفة مرغما ويعيش مثـل النـاس بالأوهام
وأنــا الــذي يحــيا بــأرض قـفرة مدحــوة بــالشـــك ، والآلام

وفـي تعـانق حـار بينـه وبـين الطبيعـة يعـود بذاكرتـه إلـى أيـام صـباه فيعقد مقارنة بين مـا ضـيه وحاضـره ، بين ماضيه حينما كانت يد الآمال تهدهد قلبه ،والأماني تراود فؤاده ، وكان يغنـي للحب ، ويرى كل شـيء حولـه هاشـا باسما الكـون يناجيـه ، والأطيـار تغـرده ، والأزهـار تبتسـم لـه،ونجوم الليـل تضـاحكه ونسمات الغاب تطارده ، وبين حاضره وهو يبصر الحياة عالما مشوها ممسوخا قد استحالت فيه الأنغام إلى مراث،وتغريد الأطيار إلـى بكـاء والليل بنجومـه إلـى كهف موحش ،يقول في قصيدته صفحة من كتاب الدموع :- [٢]

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١١٥ .

(٢) السابق صـ ١٠٦ ، ١٠٧ .

غناه الأمس ، وأطـربه   وشجاه اليوم فما غـده
قد كان لـه قلب كالطـفل   يـد الأحــلام تهدهده
. . . .
يمشي في الغاب فتتبعه   أفراح الحـــب وتنشده
ويرى الأطيار فيحسبها   بسمات الحب تــراوده
فيخـال الكون يناجيـه !   وجمـــال العالم يسعده
ونجوم الليل تضاحكه !   ونسيم الغاب يطـــارده
يــا للأيام ! فكـم سرت   قلبا في الناس لتكـمـده
هي مثل العاهر عاشقـها   تسقيه الخمر وتطـرده
يعطيك اليــومُ حلاوتها   كالشهد ليسلبـها غـــده
بالأمس يعــانقها فرحا   ويضاجعها فتـوسـده
واليوم يســايرها شبحا   أضنـاه الحـــزن ونكده
يتلو في الغــاب مراثيه   وجذوع السرو تسانده
ويماشي الناس وما أحد   منهم يشجيــه تـفـرده
في ليل الوحشة مسراه   وبكهف الوحدة مـرقده
أصوات الأمس تعـذبه   وخيـال الموت يهـدهده

وهروب "الشابي"إلى الطبيعة ولجوئه إليها من الأغراض البارزة في ديوانه وهو عندما يحن إليها ، لا يقف أمامها واصفا ومعبرا ومتأملا فحسب ، وإنما يمتزج بها ، ويتفاعل معها ، يحدثها ويفضي إليها بمكنون سره وفيض مشاعره ، إذ رأى فيها الأم الحانية ، والملاذ الآمن ، والصدر الحنون ، يجد في رحابها السكينة ، وفي جوارها الدفء والحنان ، يقول في قصيدته الغاب:- [١]

(١) ديوانه أغاني الحياة صـ ١٨٨ ، ١٨٩ .

بيت بنته لي الحياة من الشذى — والظل ، والأضـــواء ، والأنغام
بيت من السحر الجميل مشيد — للـــحب ، والأحـــلام ، والإلهام
. . . . — . . . .
في الغاب دنيا للخيال وللرؤى — والشعر ، والتفكيـــر ، والأحلام
لله يــــوم مضيت أول مـــرة — للغاب أرزح تحت عبء سقامي
ودخلته وحدي وحولي موكب — هزج مـن الأحـــلام ، والأوهام
ومشيت تــحت ظـلاله متهيبا — كالطفل في صمت وفي استسلام
أرنو إلى الأدواح في جبروتها — فإخـــالها عمد السمـاء أمامي
قد مسها سحر الحياة فأورقت — وتمايلت في جنـــة الأحـــلام
وأصيخ للصمت المفكر هاتفا — فــي مسمعي بغـرائب الأنـــغام
فإذا أنا في نشـــوة شعـــرية — فيــاضة بالـــوحـي ، والإلهام

هكذا وجد "الشابي" في الطبيعة عالمه ومستقره فظل يناجيها مناجاة المحب العاشق يحكي لها مواجده وأحزانه ، كما فعل "الرومانسيون" في أوربا وأمريكا وكما فعل "المهجريون" الذين وجدوا في رحابها مواساة لأحزانهم مصدرا للحق للحب والخير والجمال فهامت بها نفوسهم ، وتعلقت بها قلوبهم وأحسوا عندما عادوا إليها واستسلموا إلى صدرها الرحيب أنهم ولدوا من جديد وعادت إليهم طفولتهم الروحية وبراءتهم النفسية (١) ومن هنا نستطيع أن نؤكد فضل "الشابي" في التفاته إلى طبيعة بلاده وترجمته عنها في صدق من المشاعر وتجاوب كامل وإبراز للصور الواضحة ذات المعالم البارزة في الطبيعة التونسية بكل ما فيها من غدران وأنهار وطيور وأزهار وأشجار ٠

---

(١) ينظر الطبيعة في شعر المهجر ا \ أنس داود صـ ٣٤ الدار القومية للطباعة والنشر والتوزيع دون تاريخ

التــأمل والحيـرة ٠

كان التأمل من الموضوعات الواضحة في شعر "الشابي" حيث اتجه إلى البحث عن حقيقة الوجود متأملا كل ما حوله ، الناس وأقدارهم في الحياة والأيام وما يعتري بنيانها من الهدم والخراب ، والوجود وما فيه من بؤس وشقاء ، بل عنى نفسه كثيرا في الوقوف أمام مشاهد الكون محاولا تعليلها وفهم أسرارها كما حاول جاهدا أن يبدي رؤاه في الناس ، وحقيقة الموت والحياة ، والخير والشر ، وما إلى ذلك من الموضوعات التي كان مصدرها التأمل والجيشان العاطفي حينا، والحيرة والقلق ، والضيق ، حينا آخر حتى وصل إلى حالة من التمرد والشك في كثير من مسائل الكون والحياة ٠

ففي بحثه الدائب عن حقيقة الوجود ، يطالعنا "الشابي" بقصيدته "يارفيقي" والتي ساقها متسائلا عن حقيقة الناس، وحقيقة الدهر الذي يرمي الأحياء بالخطوب والرزايا الجسام ، وأحوال النجوم التي رآها دموعا ذرفتها السنين والأعوام ، والكون ما هو إلا صورة من صور العذاب ، ومع ذلك فهو يعجب من أمر الناس في الحياة ففي عز بكائهم يشدون ، ومع أنين قلوبهم الدامية يلهون ويعبثون ، ثم يعترف في نهاية تساؤلاته بعجزه عن البحث في هذه الأشياء التي ضل فيها الطريق ، وتاه في غياهب الضلال والأوهام يقول :- [١]

يا رفيقي ! وأين أنت ؟ فقد أعمت جفوني عواصف الأيام

. . . . . .

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ٠

قد تفكرت في الوجود فأعيـاني وأدبرت آيسـا لظلامي
فمعي في جوانحي أبد الدهـر فؤاد إلى الحقيـقة ظامي
يا رفيقي! أما تفكرت فـي الناس ، وما يحملون من آلام
فلقد حز في فؤادي مـا يلقون من صـولة الأسى الطلام (١)
فإذا سرني من الفجر نور ، سـآني مـا يسر قلب الظلام
مـا إخـال النجـوم إلا دمـوعا ذرفتها محـاجر الأعوام (٢)
وإذا الحيـاة في ملعب الـدهر تدوس الرؤوس بالأقدام
وإذا الكـون فلـذة مـن جحيـم ، بكـل قـلب دام
وهم فـي جحيمهم يتناغـون بـما فـي الـوجود من أنغام
عجبا للنفوس ! وهي بـواك ، عجبا للقلـوب وهـي دوام
كيف تشدو وفي محاجرها الدمع ما بين سود الموامي ؟ (٣)
يا رفيقي !لقد ضللت طريقي ، وتخـطت محجتي أقدامي
خذ بكفي فإنني تائه ، أعمى كثير الضـلال والأوهـام

ففي هذه القصيدة عرج "الشابي" على أشياء كثيرة وأطلق لنفسه العنان في صور كثيرة من صور الحياة والكون ، وكانت له رؤاه وعالمه الخاص ، فالنجوم دموع ذرفتها السنين ، والحياة في ملعب الدهر تطأ الرؤوس بالأقدام ، ونفوس الناس بواك ، وقلوبهم دوام والأحياء ، يعيشون في جحيم لا يطاق ٠

---

(١) الطلام : الشديد الحار المعجم الوسيط مادة طلم جـ ٢ صـ ٥٦٤ ٠

(٢) المحاجر : جمع محجر وهو ما أحاط بالعين ، السابق ج ١ صـ ١٦٤ ٠

(٣) الموامي : جمع موماء ، وهي المفازة الواسعة السابق ج ٢ صـ ٩٢٨ ٠

وفي البحث عن جدوى الحياة ، وما يعتري بنيانها من الهدم والخراب إثر البنيان والعمران ، حين يبدو كل هذا التشييد وهذا البنيان كأنه كان وهما وباطلا لا فائدة منه ولا جدوى من وجوده ، يقول :- [١]

أرى هيكل الأيام يعلوا مشيدا ولا بدأن يأتي على رأسه الهدم
فيصبح ما قد شيد الله والورى خرابا ، كأن الكل في أمسه وهم
فقل لي ما جدوى الحياة وكربها وتلك التي تزوي وتلك التي تنمو؟

وعبثا يحاول "الشابي"فهم هذا الكون – وهو لم يستطع فهم نفسه - فيقف بإزائه ، يود إدراكه ، ويتطلع للوقوف على حقائقه القصية العنيدة فيتأمله تأمل العاجز الذي لم يخرج من تأمله بأكثر مما يخرج به الأمي الساذج من أن الموت نهايته ، والقبر مثواه ، فيقول :- [٢]

عجبا لي ! أود أن أفهم الكون ونفسي لم أستطع فهم نفسي !
لم أفد من حقائق الكون إلا أنني في الوجود مرتاد رمسي

أما عن آرائه في الناس من حوله وقد خبرهم مليا ، في حال الرضا والغضب ، فهم غادرون ، متربصون ، أصحاب أهواء وحاجات لا تنقضي وهموم وأطماع لا تموت ، يقول :- [٣]

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١١٦ .

(٢) السابق صـ ١٠٨ .

(٣) السابق صـ ٥٦ .

آه من الناس الذيـن بـلوتهم فقلوتهم في وحشتي وحبـوري !
مـــا منهم إلا خـــبيث غادر متربص بـــــالناس شـر مصير
ويود لو ملك الوجود بأسره ورمى الورى في جاحـم مسجور

وهم يحيون في الحياة بلا عقول ، عقولهم مغيبة ، وهم كالدمى التي يلعب بها ، لا تحركهم سوى المطامع والأحقاد ، أمانيهم ميتة ؛ لأنهم نسوا عزم الحياة وشوقها وتحركوا كتحرك الأحجار ، شاعرهم ينفق عمره وفنه هدرا يقول :- (١)

إني أرى فـــأرى جموعا جمة لكنـــها تـحيـــا بلا ألباب
. . . . . .
لعب يحركها المطـــامع واللهى وصعـــائر الأحقاد والآراب
موتى نسوا شوق الحياة وعزمها وتحركـوا كتحرك الأنصاب
الشاعر الموهـــوب يهرق فنـه هدرا على الأقدام والأعتاب
ويعيش في كـــــون عقيم ميت قد شيدتـــه غباوة الأحقاب

وهم أيضا لا ينصف بعضهم بعضا ، بل يريد كل منهم أن ينسب الفضل لنفسه وأن يدعيه لذاته ، حتى إذا ما توارى أحدهم عن الوجود ، ندموا على ما أنكروه من فضله، وما جحدوه من قدره ، وتلك طبيعة نفوسهم ، ودوافع أهوائهم يقول :- (٢)

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٨٤ .

(٢) السابق صـ ١٧٨ .

الناس لا ينصفون الحي بينهم حتى إذا ما توارى عنـــهم ندموا

الويل للناس من أهوائــهم أبدا يمشي الزمان وريح الشر تحتدم

أمـا الحيـاة فهـي صـراع مريـر، البقـاء فيهـا للأقويـاء ،لـيس للضـعفاء فيهـا مكـان، فهم يوطئون بالأقدام ، تتفاوت فيها مزايا النـاس وأقدارهم ، لا يذوقون فيها سوى البلايا والرزايا ،ولا يتجرعون منها سوى كؤوس الخطوب والمحن وهي كالنوم العميق سيصحو الناس فيه على نداء الموت يقول :- [١]

إن الحيـــــاة صراع فيها الضعيف يداس

ما فاز في ما ضغيها إلا شـــديد المراس

البـعـــض لم يدر إلا البلى ينــادي البـلايا

والبعض ما ذاق منها إلا حـقيـــر الرزايا

إن الحيـــاة سبـــات سينـــقضي بالمنايا

ففي كل ما مضى من أبيات تأملية عند "الشابي" نشعر بمدى ظمئه إلى معرفة الحقيقة ، حقيقة الوجود وما فيه من أحوال الحياة والناس، وقد أخذ هذا التأمل في شعره منحى إنساني لمسنا فيه خفق القلب ، وتساؤلات النفس ، وحيرة العقل وتمثلت فيه المشاركة الوجدانية بين الشاعر وقارئه ، وأيقنا مدى حيرة هذا الشاعر الشاب الذي عنى نفسه كثيرا في الوقوف أمام هذه القضايا وأجهد فكره فيها وأزداد وازددنا معه يقينا أنه كلما جد في البحث والتأمل كلما ازداد ت نفسه قلقا وجهلا واشتد ظمؤه إلى ما غاب عنه ،حتى حق له أن يقول :- [٢]

قضيت أدوار الحياة مفكرا في الكآئنات معذبا مهموما

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٥ ، ١٦ .

(٢) السابق صـ ٦ .

الحنين إلى مواطن الذكريات ٠

كثيرا ما كان يهرب "الشابي" إلى مواطن الذكريات ويحن إليها من خلال مرابع الطبيعة ، ومدارج الحب ، وذكريات الطفولة والصبا ، فيزرف عندها الدموع الثخينة ، والعبرات الحارة ، هاربا إلى تلك المواطن الحبيبة عزاء لنفسه ، وسلوانا لمحنته ، حينما تدفعه أحداث الحياة إلى الاصطدام بواقعها المرير ، ويشعر بخيبة سعيه وتحطم آماله، فتتضاعف الحسرة في نفسه ،ويزداد الأسى في قلبه ، ويظهر حنينه في صور متألمة باكية ٠

فها هو ذا يعود إلى مراتع صباه ، ومرابع أنسه ولهوه ، يعيده الحنين إلى اللحظات السعيدة التي عاشها بين رفاقه ، وكانت رقيقة كرقة الزهور عذبة النغم كأغاريد الطيور ، فكتب قصيدته الرائعة "الجنة الضائعة " تلك الجنة التي افتقدها وافتقد معها حبيبته ، التي قضى معها أجمل لحظات عمره وأسعد أوقات حياته، دون أن يعكر صفو لقائهما واش أو رقيب يقول :- [1]

كم من عهود عذبة في عدوة الوادي النضير
كانت أرق من الزهور ومن أغاريد الطيور
قضيتها ومعي الحبيبة لا رقيب ولا نذير
إلا الطفولة حولنا تلهو مع الحب الصغير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النمير

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٤٧ ٠

وعندما عاد "الشابي "إلى عهد صباه ، اصطدم بواقعه المرير ، ومصيره الغائم المؤلم ، من ضياع حبيبته الصغيرة التي شاركته أيام طفولته ، ودرجت معه على مراتع الصبا ، فأرسل آهاته الحرى ، فخرجت مثخنة بالجراح ، مفعمة بالأسى ، بعد أن أدرك أنه لم يجن من الحياة سوى الندامة واليأس ، والبكاء والدموع ، وأن عهده القديم لن يعود ، وفجره القدسي قد توارى إلى الأبد في ليل مظلم سحيق[١] يقول :- [٢]

آه توارى فجري القدسي ، في ليل الدهور
وفنى كما يفنى النشيد الحلو في صمت الأثير
أواه قد ضاعت علي سعادة القلب الغرير
وبقيت في وادي الزمان الجهم أدأب في المسير
ماذا جنيت من الحياة ومن تجاريب الدهور
غير الندامة والأسى واليأس والدمع الغزير ؟

ويتذكر "الشابي" ماضيه وعهد صباه ، هذا العهد الطاهر البريء فتشتعل الذكرى حنينا في قلبه ، وتلتهب أشجانه وأحاسيسه ؛ لأنه عهد الأحلام والأماني والرؤى ، عهد الرضا والحبور والسرور ،عهد يعيشه الإنسان في غفلة من الزمان ، مطمئن القلب ،راضي النفس ، يقول : - [٣]

لله ما أحلى الطفولة ! إنها حلم الحياة

---

(١) ينظر مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث د \ محمد سعد فشوان صـ ٢٥٨ دار المعارف ١٩٨٠

(٢) ديوان أغاني الحياة صـ ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) السابق صـ ٥٧ .

عهد كمعسول الرؤى ما بين أجنحة السبات

ترنو إلى الدنيـــا وما فيـــها بعين باسمة

وتسير في عـدوات واديـــها بنفس حالمة

. . . . . .

لم تمش في دنيـــا الكآبة والتعاسة والعذاب

فترى على أضوائها ما في الحقيقة من كذاب

وكثيرا ما كان يعود "الشابي " إلى تلك الذكريات يجتر منها ما يشاء وبخاصة حينما كانت تتجسد أمام عينيه معالم الحزن والأسى ، وتتبدى أمام ناظريه معاني اللهفة والعجز والضياع ٠

يقف "الشابي" على شاطئ ذكرياته يسترجع من نهرها العذب حشدا كبيرا يستعين به على أعباء الحياة ، وحزنها القاتم وألمها الممض ، أيام كان يناجي الحب ويناجيه الحب، في دوحة الأمن الرحبة الواسعة، يرتل أناشيد الأماني العذاب ، بين الغصون النضرة ، والرياض الخلابة ، يقول في قصيدته التي سماها "الذكرى" :- [1]

كنا كزوجي طائر ، في دوحة الحـــب الأمين

نتلو أناشيد المنى ، بين الخمـــائل والغصون

متغردين مع البلابل في السهول وفي الحزون

ملأ الهوى كأس الحياة لنا ، وشعشعها الفتون

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ٥٣ ٠

حتى إذا كان في غفلة من دهره ، يهدهد أمانيه الحبيبة ، ويرشف من خمر الحياة عذب الشراب ، صحا فؤاده على غضبة الموت ، فأظلمت الدنيا في عينيه ، واستحال لونها الوردي إلى رماد قاتم فأدرك أن للحياة قوانين تخالف ما تعارف عليه البشر، ونواميس للطبيعة التي تتبدل الحياة فيها وتتغير من اجتماع وافتراق ، وصحة واعتلال وحياة وموت يقول :- (١)

حتى إذا كدنا نرشف خمرها غضب المنون
وأراق خمر الحب في وادي الكآبة والأنين
وأهاب بالحب الوديع ، فودع العش الأمين
وشدا بلحن الموت في الأفق الحزين المستكين

هكذا كان يعود "الشابي" في لحظات المحن والآلام – وما أكثرها في حياته - إلى عهد طفولته وصباه ، ويحن إلى مراتع لهوه وذكرياته ، وكان هذا العهد كما صوره لنا عهد السعادة والفرح ، ومهد الذكريات الحالمة الجميلة أيام أن كان سليما معافى لم يقصه المرض عن أحلامه ، ولم تقعده العلة عن أمانيه أما وقد صوب المرض إليه سهامه ، ونالت العلة من قلبه الواهي الضعيف وكبلته الحياة بهمومها وأوجاعها ، فإن العذر كل العذر له في اجترار تلك الذكريات الحبيبة ، واسترجاع تلك العهود النضيرة ، والبكاء عليها بدموع فياضة غزيرة إثر تلك العودة اللاهفة لهذا العهد المنقضي الجميل ، ومع هذه العودة ، ورغم هذا الحنين لم يجد "الشابي" في حنينه واسترجاع ذكرياته ما كان يأمله ، ولم يحقق ما أراده وظلت نفسه ظامئة ، وروحه مكلومة يائسة .

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ٥٣ .

ثالثا : الانتماء الوطني ٠

من اليسير أن يقف الدارس المتأمل على العالم الشعري "لأبي القاسم الشابي" وأن يحدد قسماته وملامحه، وأن يضع شعره في ناحيتين كبيرتين الأولى : الناحية الوجدانية الذاتية ، وقد سلطنا الضوء عليها ٠
والثانية : الناحية الوطنية ونحن بصدد الحديث عنها وإبراز ملامحها في عالم "أبي القاسم " الشعري ٠

إذ لم تكن ذات " أبي القاسم" الغارقة في أحزان علتها وهمومها ليصرفها هذا الوجدان الحائر المكتئب عن الإحساس الوطني والقومي ؛ لأنه ترعرع في بيئة وطنية ، فأبوه الشيخ " محمد بن أبي القاسم الشابي" كان له غيره على شئون الإسلام والمسلمين ، تنفعل نفسه بما يجري من أحداث الشرق العربي آنذاك ، فلا غرابة أن يرث الشاعر صدق الوطنية عن أبيه وأن ينطلق في ميدان الوطنية انطلاقا كبيرا يسجل أحداث " تونس "والأمة العربية ويأسى لأحزانها ، وآلامها ويبكي في مآتمها الوطنية ، ويتغنى بأمجادها ويترنم في أفراحها وأعيادها مدفوعا في كل ذلك بيقظة إحساسه ، وطموحه في حياة أكثر حرارة ويقظة بين أبناء شعبه ، وبخاصة وأن بذور الثورة كانت قد غرست من قبل ٠

فقد قاد وهو لا يزال طالبا حركة طلاب "الزيتونة" التي كانت تهدف إلى إصلاح مناهج التعليم والإدارة في الكلية ، وتزعم إضرابهم عن الدروس ، وترأس لجنتهم وسير أعمالهم بوطنية أعجبت الجميع [1]

---

(١) ينظر أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة صـ ٦٦ ، ٦٧ ٠

حبـــه وصدق إحساسه الوطني ٠

لعلنا لا نجاوز الصواب إذا قلنا إن "تونس" كانت دوما في عيني "أبي القاسم "هي البلد الجميل ، ويزداد جمالها ورونقها حينما نجد شاعرا جميلا رقيقا "كأبي القاسم " ينتقي لها من قاموسه الشعري -الذي يعد من أنقى القواميس – ألفاظا رقيقة شفافة كأنها بلور مضيء ، أو كأنها نجوم تحولت إلى كلمات ٠

فديوان "أبي القاسم " على كثرة قصائده لم يصف فيه شيئا بالجمال سوى بلده " تونس "في قصيدته التي سماها " تونس الجميلة" بينما نجد ديوانه مليئا بالحديث عن الظلام والكآبة ، والشكوى ، والعاصفة ، والطاغية ، والسآمة ، والدموع ، والأحزان والخريف ، والآلام ، والأسى ، والشجون والمقبرة ، والعواصف ، والطغاة ، والضياع [١] وغير ذلك ، يقول في هذه القصيدة معبرا عن حبه لوطنه :- [٢]

أنا يا تونس الجميلة في لج — الهوى قد سبحت أي سباحة
شرعتي حبك العميق وإني — قد تذوقت مره وقراحه
لا أبالي وإن أريقت دمائي — فدماء العشاق دوما مباحة
وبطول المدى تريك الليالي — صادق الحب والولا وسجاحه [٣]

---

(١) من هذه القصائد "في الظلام " والكآبة المجهولة " وشكوى اليتيم " وزئير العاصفة " وإلى الطاغية "والسآمة " وصفحة من كتاب الدموع " وأغنية الأحزان " وبقايا الخريف " وفي فجاج الآلام " ونشيد الأسى " ، والشجون " وحديث المقبرة " وأيتها الحالمة بين العواصف " وإلى طغاة العالم "وشكوى ضائعة "

(٢) ديوان أغاني الحياة صـ ١٣ ، ١٤ ٠

(٣) السجاح : ما يقال على سبيل التعريض ، لا على سبيل الحقيقة أو التأكيد٠

فنحن نشعر في هذه الأبيات بعشقه "لتونس " وولهه بها ، وتمجيده لها فحبها شريعة ، ودماؤه فداء لها ، وسيظل على طول المدى وفيا لها ، صادق الحب والولاء لترابها ٠

وهذا الحب الذي أبداه "الشابي" تجاه وطنه لم يكن حبا عاطفيا لمجرد الحب ، ولم يك مجردا من التأمل ، خاليا من التفكير والوعي بالقضايا والمشكلات التي يعيش فيها أبناء الشعب ، ويعاني منها أبناء الوطن بل كان حبا واعيا بصيرا متفتحا على مشكلات وطنه ، ولذا فهو يحاول في جرأة وشجاعة أن ينير لشعبه الطريق ، وأن يضع يديه على الأدواء والعلل التي يعاني منها ، وأن يقدم له يد العون ، ويسوق إليه أسباب التقدم والنهوض، يقول :- (١)

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه عزم الحياة إذا ما استيقظت فيه
والحب يخترق الغبراء ، مندفعا إلى السماء ، إذا هبت تناديه
والقيد يألفه الأموات ، ما لبثوا أما الحياة فيبليها وتبليه

وإذا ما أردت أن تلمس مدى انتمائه لوطنه وحبه له فاستمع إليه وهو يصف حاله هو وكل وطني شريف ، وقد بكى لما آل إليه حال البررة من أبناء الوطن المخلصين من ظلم وعسف وإرهاق إذ يقول :- (٢)

لست أبكي لعسف ليل طويل أو لربع غدا العفاء مراحه
إنما عبرتي لخطب ثقيل قد عرانا ولم نجد من أزاحه
كلما قام في البلاد خطيب موقظ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الإلهي بالعسف أماتوا صداحه ونواحه

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١١٨ ٠ (٢) السابق صـ ١٣ ٠

إنها نفثة مصدور محب عاشق أرقه دوام ذلك الامتهان الرهيب لكل وطني شريف ، وأقض مضجعه تشريد النابهين المخلصين ، وأرهقه إخماد صوت الدعاة المصلحين ، نلمس كل ذلك في كلمات تطفو على أوتارها نبرات الأسى ، ونسمع في أنغامها فداحة الخطب ، وهول المصاب ، إذ ينعى فيها كل وطني شريف ، ويشفق فيها على كل مخلص أبي ويواسي فيها كل مصلح ثوري ٠

فلم تكن الوطنية في شعر "الشابي" مجرد أقوال تنظم أو خواطر تنشد ، وإنما كانت إيمانا يعمر قلبه ، وحبا يمازج دمه ، وحسا يخالط فكره وكيانه ، فغيرته على وطنه ،وتطلعه لفجر الحرية والاستقلال ، نحسها نابعة من ذاته [١]

استمع إليه في هذه الهمسة الحانية بهذه الكلمات العذبة الرقيقة في قصيدته الناعمة " يا ابن أمي " إذ يقول :- [٢]

خلقت طليقا كطيف النسيم وحرا كنور الضحا في سماه

تغرد كالطير ، أنى اندفعت وتشدوا بما شاء وحي الإله

وتمرح بين ورود الصباح وتنعم بالنور ، أنى تراه

كذا صاغك الله يا ابن الوجود وألقتك في الكون هذي الحياة

******

ثم استمع إليه وهو يوقظ برفق أبناء وطنه مما هم فيه من غفوة أو سنة أخذت بعيونهم وكأنه يداعب خيالهم بنسيم الحرية الغائبة ، وجلال العزة المفقودة

---

(١) ينظر الانتماء في وجدان أمير الشعراء د حلمي حسن أبو العز ط ١ صـ ٦٧ مطبعة التركي للطباعة ١٩٩٣ ٠

(٢) ديوان أغاني الحياة صـ ٨٨ ٠

فيقول :- [1]

فما لك ترضى بذل القيود وتحني لمن كبلوك الجبـــاه ؟
وتسكت في النفس صوت الحيــاة القوي إذا ما تغنى صداه؟
وتقنع بالعيش بين الكهوف ، فـــأين النشيد ؟ وأين الإبـاه ؟
ألا انهض وسر في سبيل الحيـــاة فمن نام لم تنتظره الحياة

أرأيت همسا ناعما كهذا الهمس ، ويدا حانية كهذي اليد ، ورفقا طيبا كهذا الرفق، إنـه لا ينظم مثل هذه الكلمـات الصـادقة إلا محب مخلص ، وهذا شـأن البررة من أبنـاء الـوطن المخلصـين الـذين لا تعرف الأحقـاد سبيلها إلـى قلـوبهم ، ولا يجـدون لـوطنهم الأم أقـل مـن واجـب الرحمـة والرفـق بـه ، وصـدق الحـب والإخلاص له ٠

وانطلاقا من هذا الحب لم تكن كلمات "الشابي" كلها على هذه الشاكلة من الرقة والعذوبة ، وإنما كان حينمـا يفكر فـي حـال هذه الأمـة ويشـعر بنفحـات تلك الديار تجري في دمه ، وترابها المقدس في نفسه ، كان يرى أنـه من الوفـاء لهـا ، والاعتراف بالود نحوها ، أن يثور علـى الغاصـبين لأرضـها المحتلين لترابهـا ، وأن يهيب بأبناء وطنه أن يثورا في وجوه هؤلاء الطـامعين المستبدين ، واتخـذت ثورته الوطنية صورا شتى ومظاهر متعددة ٠

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ٨٨ ٠

الثورة على الظلم والاستبداد ٠

خـاض " الشـابي" معاركـة الوطنيـة ، محركـا فـي النفـوس ميـاه التيـار الثوري الراكدة ، فنـادى بـالثورة علـى الظلـم والقهر والاستبداد ، وسـجل أحداث أمته ، وتغنـى بأمجادهـا ، وتجرع مرارة احتلال ترابهـا ، وآلام ذلهـا وانكسـارها إذ وجدها ترزح تحت كـابوس الاحتلال الفرنسـي ، وتستشعر منـه مرارة وألمـا وهو ألـم ينبعـث مـن قلبهـا وصـميمها كمـا ينبعـث مـن قلبـه وصـميمه ، فقد أذلهـا الفرنسيون [١] وحولوا حيات أبنائها إلى جحيم لا يطاق ٠

وكـان الشـعب التونسـي فـي مجموعـه نائمـا أو كالنـائم ، يحتـاج إلـى الفنـان ليوقظـه مـن ركـود الإحسـاس والشـعور ، ويحتـاج إلـى الثـائر ليقـوده فـي معركتـه الحاسمة ضد سيطرة الاستعمار الغربي وضد سيطرة الحكم الداخلي الفاسد [٢]

فثـار "الشـابي" ومـن معـه مـن رفاقـه ثـورة تغلغلـت فـي أعماقـه ضـد هـذا الاستعمار الغاشم الذي ألقى بكلاكله على صدر أمته ، وقد ذاقت من ظلمه

---

(١) سقطت تونس في يد الفرنسيين سنة ١٨٨١ م قبل الاحتلال الإنجليزي لمصر بعام واحد، ينظر أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة صـ٧ ٠

(٢) كانت تونس تخضع لحكم مزدوج : حكم الفرنسيين أولا ، وحكم البـاي ثانيـا ، والبـاي هو الذي ورث الحكم عن أسرته "الحسينية "التي حكمت تونس منذ سنة ١٧٠٥ م إلى سنة ١٩٥٦ م حيث أعلنت الجمهورية وتم خلع البايات ، والباي كلمة تركية ، وهي تشبه كلمة الخديوي في مصر ، ينظر أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة صـ ٧ ٠

وبطشه الأمرين ، وكانت كلما حاولت أن ترفع رأسها لتحيا حياة حرة كريمة انهال عليها ضربا وطعنا ، حتى تخر مهيضة ، وهي تئن أنين الثكلى فيهب "الشابي" في وجه المستعمر فيلطمه بقصيدته التي جعلها بعنوان إلى طغاة العالم فيقول :- [1]

ألا أيـــها الظـــالم المستبد حبيب الفنـــاء عدو الحياة
سخرت بأنات شعب ضعيف وكفك مخضوبة من دماه
وسرت تشـوه سحر الوجود تبذر شوك الأسى في رباه

****

رويدك لا يخدعنك الربيع صحو الفضاءوعصف الرياح
ففي الأفق الرحب هول الظلام قصف الرعود وعصف الرياح
حذار فتحت الرماد اللهيب من يبذر الشوك يجني الجراح

فروح " الشابي" تسري في كيان هذه الأبيات روح الثورة والتمرد وحرارة القول والاندفاع والتدفق ، وكأننا نسمع زئير أسد ، أوهبوب عاصفة ٠

وهو يسجل على أعداء شعبه ظلمهم واستبدادهم ، وما سفحوا من دمائه الزكية ، وما دنسوا من رباه الطاهرة ، وما غرسوا فيه من شوك الأسى والألم ٠

ويقدم "الشابي" صورة لبطش هؤلاء الطغاة ، ويأسى لمصاب أمته من خلال هذه الصورة إذ يراها تتلظى في جحيم الآلام يوما بعد يوم ، وعاما بعد عام

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٨٥ ٠

والمستعمرون يجدون في آلامها لذة ، وفي عذابها متعة ،لا يرون فيها سوى أنها فريسة وطعام ، فيقول في قصيدته "أبناء الشيطان " :- [١]

وشعـــوب ضعيفة تتلظى في جحيم الآلام عـــاما فعاما
والقوي الظلوم يعصر من آلامـــها السود لـــذة ومداما
يتحساه ضاحكا ، لا يراها خلقت في الوجود إلا طعاما !

ويزأر " الشابي " في وجه الغاصبين محذرا إياهم من ثورة هذا الشعب الذي طال صمته ، وجمل صبره ، بأنه لن تدوم استكانته ، ولن تطول غفوته وأن رجاله إذا ما هبوا واستيقظوا فلن يقف شيء أمامهم ، سيثأرون لعزتهم المحطمة وكرامتهم المهدرة ، لن يرهبوا الموت، ولن يخافوا قيود الذل وأغلال الهوان يقول في قصيدته زئير العاصفة :- [٢]

فيا أيها الظالم المصعر خده رويدك ! إن الدهر يبني ويـــهدم
سيثأر للعز المحطم تـاجـــه رجال إذا جـــاش الردى فهم هم !
رجال يرون الذل عار وسبة ولا يرهبون الموت والموت مقدم
وهل تعتلي إلا نفوس أبـــية تصدع أغـــلال الهـــوان وتحطم

ويبعث "الشابي" برسالة أخرى لهؤلاء الطغاة مفادها أن صروح الظلم التي بنوها على أنقاض هذا الشعب ستنهدم ، وأن قيود الذل التي كبلوه بها ستتحطم ،فلا يغتروا بحلم هذا الشعب ، الذي أغضى عينيه على القذى ، حينما

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٢٠ .

(٢) السابق صـ ٤٢ .

ينهض هؤلاء المستضعفون غاضبين لعزتهم ، ويهبوا لتحطيم قيودهم ويصبوا جام غضبهم على ظالميهم ، وأن فجر هذا اليوم آت قريب ، يقول في قصيدته إلى الطاغية :- [١]

لك الويل يا صرح المظالم من غد إذا نهض المستضعفون وصمموا !
إذا حطـــم المستعبدون قيودهم وصبوا السخط أيــان تعلم ٠٠٠ !
أغرك أن الشعب مغض على قذى وأن الفضاء الرحــب وسنان مظلم
ألا إن أحـــلام البـــلاد دفينـــة تجمجم في أعمـــاقها ما تجمجــم
ولكـــن سيأتي بعد لأي نشورها وينبثق اليـــوم الـــذي يترنـــم

وبشجاعة الوطني الذي لا يأبه لأعدائه ، يشعل "الشابي" ما استطاع من نيران الثورة ، وينفخ في رياح عزتها وكرامتها ، مصرحا حينا ، وملمحا حينا آخر أمام المستعمرين وأعوانهم ، جاعلا ختام دعواته أن الأيام لا تبقي شيئا على حاله ، وأن الحق قد يغفوا ولكنه لا يفنى والشعوب قد تستكين ولكنها لا تموت لكي يبقى الأمل حيا في النفوس وجذوة الحرية مشتعلة لا تنطفئ ، يقول :- [٢]

هو الحق يغفي ، ثم ينهض ساخطا فيهدم ما شاد الظلام ويحطم
وفي صيحة الشعب المسخر زعزع تخر لها شم العروش وتهدم

ويقول آملا في انبثاق النور من بين أستار الظلام :- [٣]

إن ذا عصـر ظلمة غير أني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيع الدهر مجد قومي ولكن سترد الحيـــاة ، يوما وشاحه

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ٤٣ ٠

(٢) السابق صـ ٤٣ ٠

(٣) السابق صـ ١٤ ٠

استنهاض الهمم ٠

إذا كان "الشابي" قد هان يوما وذل أمام مرضه الذي عاث في قلبه فإنه لم يهن ولم يذل أمام الطغاة المستعمرين ، بل ظل قويا ينازلهم في كل ساحة و يبارزهم في كل معترك ، يريد أن يثبت لأمته وللعالم أجمع أن مخالب الحق لا تنثني ، وأظافر الشعوب لا تقلم ، ففي شعر كله حماسة وقوة وإحساس بوطأة الظلم الجاسم على كيان أمته ،أراد أن يبعث للغافلين من أبناء الأمة رسالة يوقظهم فيها من سباتهم ، ويحيي ميت الآمال في نفوسهم ، وينقذ الضحية من يد الجلاد قبل فوات الأوان ، فيقول مستنهضا الهمم ، ومحركا الأحاسيس و المشاعر :- [١]

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولابد لليـــل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوها واندثر
فويل لمن تشقه الحيـاة من صفعة العدم المنتصر

ويظل على هذه الشاكلة في بقية الأنشودة مقبلا على أبناء وطنه نافحا فيهم الهمة والطموح ، وباعثا فيهم روح المخاطرة والمغامرة ، منتزعا من نفوسهم اليأس والتشاؤم ؛ ليهبوا من رقادهم ، وينفضوا غبار الذل والاستكانة عن أبصارهم ، فيقبلوا على النور لتكتحل به أعينهم ، وينهلوا من نهر الحياة الجاري المتدفق ، ويقبلوا عليها ، و يرتووا من رحيقها ٠ [٢]

---

(١) ديوان أغني الحياة صـ ١٦٧ ٠

(٢) ينظر دراسات في الشعر العربي المعاصر د شوقي ضيف صـ ١٥٣ ط ٨ دار المعارف ١٩٥٩ م ٠

يقول :- [١]

إذا مـــا طمحت إلى غـــــاية ركبت المنى ونسيت الحذر

ومن لا يحب صعـــود الجبال يعش أبـد الدهر بين الحفر

أبارك في الناس أهل الطموح ومــن يستلذ ركوب الخطر

هو الكون حـــــي يحب الحياة ويحتقر المـــوت مهما كبر

ويستمر "الشابي" في استنهاض الهمم ، وإثارة العواطف ، وتحريك كوامن الحس الوطني ، داعيا إلى التحلي بالأمل ، وصدق العزيمة ، محذرا في الوقت ذاته من روح الانهزام والضعف ، الذي يقضي على كل أمل ويبدد كل رجاء ، فيقول :- [٢]

ضعف العزيمة لحد في سكينـــته تقضى الحياة بناه اليأس والوجل

وفي العـــزيمة قوات مسخـــرة يخر دون مداها الشـــامخ الجبل

والناس شخصان ذا يسعى به قدم من القنـــوط وذا يسعى به الأمل

وما أروع هذا البيت الأخير الذي جعل فيه الناس صنفان : صنف تسعى به قدمه اليائسة فهي تخطو به خطوات العجز والقنوط ، وصنف يحدوه الرجاء وتدفعه الآمال، فقدمه تسوقه نحو الحياة والبقاء ٠

وفي ظل هذه الدعوات لم تفارق "الشابي"مرارة الخوف من اليأس وانعكاساته على أبناء وطنه ، فلطالما حذر منه ، وداعا إلى أخذ الحياة مأخذ الجد خشية تسرب اليأس إلى النفوس :- [٣]

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٦٧ ، ١٦٨ ٠

(٢) السابق صـ ١٧ ٠

(٣) السابق صـ ١٦ ٠

واليأس موت ولكن موت يثير الشقاء

والجد للشعب روح توحي إليه الهناء

فإن تولت تصـــدت حيـــــاته للبلاء

ولم ينس "الشابي" أن يبين لشعبه أنه لن ينهض ، ولن تدب في أوصاله حياة العزة والكرامة ، إلا إذا أحب الحياة وأقبل عليها ، واستيقظت فيه روحها وعزمها ، وحطم الأغلال والقيود التي تكبله ، وتحد من انطلاقه ، وتعوقه عن الطموح والسعي ، فيقول :- (١)

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه عزم الحياة إذا ما استيقظت فيه

والحب يخترق الغبـراء مندفعا إلى الســـــماء إذا هبت تنــاديه

والقيد يألفه الأمـــوات ما لبثوا أما الحيـــاة فيبليـــها وتبليـــه

وإذا ما رأى شعبه ساكنا متخاذلا ناداه وسأله عن أمانيه وأحلامه ، وأين ذهب قلبه ؟ وهل ما زال يخفق بإحساس الحياة ؟ وأين ذهبت روحه وعزمه ؟وهل ما زال يحس بآلامه التي تنزف دما ؟ وأي حياة تلك التي يحياها ؟ فرب حياة هي إلى الموت أقرب ! فيقول :- (٢)

أين يا شعب قلبك الخافق الحســاس ؟ أين الطموح والأحلام ؟

أين يا شعب ، روحك الشاعر الفنان ؟ أين الخيـــال والإلهام ؟

أين عزم الحيـــاة لا شيء إلا المــوت والأسى والصمت والظلام

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١١٨ .

(٢) السابق صـ ١٧٥ .

عمـــر ميـــت ، وقلـــب خـــواء ودم لا تثيـــــره الآلام
أي عيـــش هـــذا ؟ وأي حيـــــاة ؟ رب عيش اخف منه الحمام

وفـي أحيـان أخـرى كـان يضـيق "الشـابي" بقومـه لمـا يـرى مـن فتـور عزائمهم ، وضعف هممهم ، فيتحول شعره إلى ما يشبه حمما من النيران يصـلي بها المتخاذلين ، وقطعا من الأحجار يدمي بها رؤوسهم، فيقول ، وقد تمنـى أن لـو كـان حطابـا يحمـل فأسـا يهـوى بهـا علـى الـرؤوس ، أو سـيلا ينهمـر علـى قبـور الموتى ، أوريحا تهب على النفوس الذابلة ، لكنـه آثر أن يعتزل حيـاتهم ، وينـأى عن مجتمعهم إلى عالم الغاب النقي الأبي فيقول :- [١]

أيها الشعـب ليتني كنت حطابا فأهوى على الجذوع بفأسي!
ليتني كنت كالسيول ،إذا سالت تهد القبور ، رمسا برمـس !
ليتني كنـت كـالشـتاء أغشي كل ما أذبل الخريف بقرسي !
إنني ذاهب إلى الغاب يا شعبي لأقضي الحياة وحدي بيـأس !

وفي أحيا أخرى كـان يقسو علـى الشـعب قسـوة فيهـا عنـف الكلمـة ، وقـوة التعريض ؛ كي يثير عواطفهم ، ويهز نفوسهم فيقول :- [٢]

أنت روح غبية تكـــره النور وتقضي الدهور في ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق إن طافت حـواليك دون مس ، وجـس

هكذا استنهضهم "الشابي" ودعاهم إلـى تحطيم القيـود النفسـية والمعوقـات التي تعترض طريقهم ، على أرض الواقع ٠

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٠٢ ٠

(٢) السابق صـ ١٠٢ ٠

لم يكن " الشابي " مجرد شاعر يلقي بقصائده ليحرك المشاعر ويهيئ النفوس للثورة ضد الاحتلال وفقط ، وإنما كان فارسا يحارب في أكثر من ميدان فهو شاعر صادق العزم والوطنية من جهة ، وهو ثائر مناضل ضد الاستعمار من جهة أخرى ، وهو قائد يستنهض الهمم ويحرك المشاعر من جهة ثالثة وهو من ناحية أخرى لم ينس الظروف القاسية التي يحيا فيها أبناء وطنه ، وما تعيش فيه الأمة من ليل بهيم حالك ٠

العطف على آلام الشعب النفسية ٠

فكما خاض معركة الوطنية وأداء الواجب ، ونادى بالثورة على الظلم والاستبداد ، وسجل أحداث أمته ، وتجرع مرارة انكسارها ، التفت في الوقت ذاته إلى تصوير البؤس والحرمان ، وإبراز بعض الجوانب المظلمة في المجتمع وخاض معركة الألم النفسي الذي يصيب بعض أفراد الشعب نتيجة لأحداث الحياة أو لظروف اجتماعية قاهرة ، عطفا على آلام الشعب ، في نزعة إنسانية تدفع إلى الإيمان بالإنسانية العليا ، إذ أن الشاعر الحق هو الشاعر الإنسان [١] ففي قصيدته "فجاج الآلام" يضرب بشعره على الأوتار الحساسة في النفس

---

(١) يرى د \ أحمد زكي أبو شادي ، رائد جماعة أبولو ، أن الشاعر الحق هو الشاعر الإنسان وله قصيدة بهذا العنوان يقول فيها :-

لا أرى غيره قمينا بعرش لنظيم يعيش في الأجيال

هو يبني مع الطبيعة ملكا لحياة غنية الآمـــال

جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث د \ عبد العزيز الدسوقي صـ ٤٦٦ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م ٠

البشرية فيقف على محنة فتاة اختطف الموت أبويها ! فأضحت بين الأحياء يتيمة وحيدة تنبعث منها ألحان الألم والشكوى فيرثى لحالها ويسلط الضوء على محنتها ، وسط آلامه الذاتية والنفسية والاجتماعية ، فيقول :- (١)

بين القبور فتاة جار الزمان عليها
فافتك منها بعنف كف الردى أبويها
تقول والليل ساج والقبر مصغ إليها
يا ليتني مت من قبل أن تسوء حياتي
وينضب الدمع من لوعتي ومن حسراتي
من لي بحفرة قبر تضمني وشكاتي !

ويأسى لمصاب أم انتزع الموت ولدها ! فغابت بفقده آمالها وتجسدت بمصرعه أحزانها وهمومها ، فيشاركها مصابها ، ويزرف معها الدموع السخينة شفقة بها ، ورحمة بحالها ، وفي التفاتة رائعة يخلص "الشابي" إلى بعض آرائه وفلسفته في الحياة ، من أنها بحر أعماقه الردى ومستقره الموت ، وعلى شواطئه تبكى القلوب دامية ، يقول :- (٢)

يا أيها الطفل الذي قد كان كاللحن الجميل
والوردة البيضاء تعبق في غيابات الأصيل
يا أيها الطفل الذي قد في هذا الوجود
فرحا يناجي فتنة الدنيا بمعسول النشيد
ها أنت ذا قد أطبقت جفنيك أحلام المنون

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ٦٥ .

(٢) السابق صـ ١٢٩ .

وفي همس ناعم أليف ، ورحابة إنسانية غامرة ، يبدي "الشابي" تعاطفه ورثاه " لعازف ناي أعمى " قد كبلته محنته ، وأرهقته عاهته ، فيتغلغل في أعماقه ويسبح في عالمه ، ويمتزج به ويشاركه أنينه ، طالبا إليه أن يطرح اليأس خلفه ، وألا يبالي بغربته بين الأحياء ، فإن كان البؤس قد عرف إليه طريقه ، فإن الأحياء جميعا بؤساء جديرون برحمة خالقهم العظيم ،يقول :- (١)

أدركت فجر الحياة أعمى وكنت لا تعرف الظلام
فأطبقت حولك الدياجي وغام من فوقك الغمام
وعشت في وحشة تقاسي خواطر كلها ضرام
وغربة ما بها رفيق وظلمة ما لها ختام

*****

هون على قلبك المعنى إن كنت لا تبصر النجوم
فكلنا في الحياة أعمى يسوقه زعزع عقيم
وكلنا بائس جدير برأفة الخالق العظيم

وإمعانا من "الشابي" في مشاركته الوجدانية لهذا الأعمى ومبالغته في الإشفاق عليه لا يأنف من تفضيله على غيره المبصرين الذين يرون ماء الحياة سرابا خداعا ، وأرضها قفرا خاويا ، لا تجني منه أعينهم سوى الشوك والخراب ، ويدعي أن أسعد الناس حظا هم هؤلاء العميان الذين لا يبصرون الهول والمصاب ، فعليه أن يحمد الله ويرضى بقدره ويقنع بما أمدته به الحياة من أنغام وألحان عذاب ٠

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ٧٨ ٠

رابعا : العالم الشعري لأبي القاسم
رؤية فنيــة ٠

العـاطفـــة

تنوعت العاطفة عند "الشابي " وتعددت صورها تبعا لاختلاف التجارب وتباينها في نفسه ، فقد كان لوجدانه الذاتي المضطرب حينا ، والمتدفق الغامر بالعواطف حينا آخر ، وأحداث الحياة ، وقضيا المجتمع ومشكلاته ، أثر في تباين عواطفه وتعددها ، وهي في مجملها تصور خلجات نفسه ، وتجاربه الذاتية ، كما تمثل شعوره الاجتماعي ، والوطني ؛ لذلك اختلفت العاطفة عنده ٠

وهذه العاطفة قد تأتي رقيقة ناعمة تتسرب برقتها إلى الوجدان ، وذلك في ثنايا حديثه عن المرأة والحب كما في قوله :- (١)

عــذبة أنت كالطــفولة كالأحــلام كاللــحن كالصبــاح الجــميل
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء كــالورد ، كــابتســـام الوليد

وكما في قوله :- (٢)

أراك فتخــلو لــدي الحيـاة ويملأ نفسي صبـــاح الأمل
وتنمو بصدري ورود عذاب وتحنـو على قلـبي المشتعل

وقد تأتي قاسية شديدة ، تنبع من نفس متضجرة تلتهب غيظا وحنقا على المستعمرين الغاصبين كما في قوله :- (٣)

سيثأر للعز المحطم تاجــه رجال إذا جــاش الردى فهم هم !
رجال يرون الذل عار وسبة ولا يرهبون الموت والموت مقدم

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٢١ ٠ (٢) السابق صـ ١٢٥ ٠ (٣) السابق صـ ٤٢ ٠

وقد تـأتي هذه العاطفة حزينـة باكيـة ، يغلـب عليهـا طـابع الشـجي والألـم وذلك في ثنايا حديثه عن آلام الشعب النفسية ، ومـا يصـيب بعض أبنـاء المجتمـع من رزايا ومحن وخطوب اجتماعية ونفسية ،كرثائه لحال الفتاة التـي مـات أبويهـا وحديثه عن أم الطفل الثكلى ، حين قال :- [١]

بين القبـور فتــاة جـار الـزمـان عليــها

فافتك منـــها بعنف كـف الـردى أبـويــها

تقول والليـــل ساج والقبر مصـــغ إليها

يا ليتني مت مــن قبـل أن تســوء حياتي

وهذه العواطف في تنوعها تتدافع في نفس"الشابي" لأنه عاش الحيـاة من زوايا متعددة ، فعاشـها بوجدانـه الـذاتي من خـلال التعبير عن عواطفه وهمومـه وآمالـه ، وأحلامـه، وعاشـها مـن زاويـة الـوطني المناضـل بحماسـته وغيرتـه وإخلاصـه ، وعاشـها برؤيـة الاجتمـاعي المصـلح ،بنصـحه وإرشـاده وهـذه العواطف جميعها تتسم في مجملها بالصدق والحرارة والسمو ٠

المعجم الشعري

إذا كـان لكـل عصـر قوالـب تعبيريـة يصـب فيهـا الشـعراء تجـاربهم وأحاسيسهم وفقا لما تمليه عليهم روح العصر، وطبيعـة البيئـة التـي يفرزون فيهـا نتاج أشعارهم ، فإن وظيفـة التعبير الأدبـي لا تنتهـي عند الدلالـة اللغويـة للألفـاظ والعبارات بل تضاف لهذه الدلالة مؤثرات أخرى منهـا الإيحـاء اللفظـي والإيقـاع والظلال ، والموسيقى ، والصور ، ومؤثرات أخرى يكمل بها الأداء الفني ٠ [٢]

(١)ديوان أغاني الحياة صـ ٦٥ ٠

(٢) ينظر النقد الأدبي أصوله ومناهجه ١ \ سيد قطب صـ ٣٢ طبعة دار الشروق د \ت ٠

واللفظ الشعري عند " الشابي "في معظمه لفظ يتسم بالعذوبة والرقة تارة ، والجزالة والفخامة تارة أخرى ، وبالسهولة واللين تارة ثالثة حتى لتكاد تقترب من لغة الحياة [١] ولا أعني بهذه السهولة تلك التي تؤدي إلى ركاكة الأسلوب أو ضعفه ، وإنما هي سهولة في الأداء تنأى عن الابتذال، و تتلاءم مع التجربة التي خاضها "الشابي" بشقيها : الوجداني الذاتي ، والاجتماعي الوطني ؛ لأن الأسلوب البسيط السهل والقوي الواضح في مثل هذه الموضوعات يكون أجدى وأكثر نفعا وملاءمة ٠

فمثلا حينما يتحدث عن الطبيعة نجده يستعين بالألفاظ السهلة الموحية المعبرة ، المرتبطة بالطبيعة من ناحية ، والمحاكية لها في رقتها وهمسها وأضوائها وظلالها وإشراقها من ناحية أخرى من مثل : الشروق الغروب ، الأفق ، الفجر ، الصباح ، والجدول ، والبحيرة ، والشط ، والواحة ، والحقل ، والموج ، والغاب ، والعواصف ، والنسيم ، والندى والزهر والربيع وغيرها ٠

وعندما يتناول موضوعا آخر كالثورة على المحتلين الغاصبين نجد ألفاظه قوية جزلة ، عالية الجرس ، تحاكي شعور " الشابي " في ثورته وغضبه من مثل الظالم ، النهوض ، المستضعفون ، التحطيم ، القيود ، الهوان ، الأغلال النار ، الرهيب ، الموت ، الأعماق ، الويل ، السخط ٠

فالمعجم الشعري "لأبي القاسم الشابي"مليء بالألفاظ التي تدل على الإيحاء المعبر ، كما أنها تدل في الوقت ذاته على اختيارات تنم عن موافقة اللفظ للمعنى والشعور ، ومن ملامح اللفظ الشعري عنده التناغم بين اللفظ والمعنى ، استمع إليه حينما يقول :- [٢]

---

(١) ينظر جماليات القصيدة المعاصرة د \ طه وادي صـ ٢٧٤ ٠ (٢) ديوان أغاني الحياة صـ ٥٣ ٠

كنا كزوجي طائر في دوحة الحب الأمين

فإن كلمة " الأمين "هنا تصور ما كان يفتقده "الشابي" في حياته من إحساس بالأمن ،إذ كان يشعر في قرارة نفسه بالخوف من كل ما حوله ،خوف الأعداء والمتربصين ، وخوف الأدواء والعلل ، وخوف الموت الذي كان يتربص له في كل وقت ٠

كذلك فإن كلمة أعياني ، وآيسا ، وظلامي ، في قوله :- [١]

قد تفكرت في الوجود فأعيـــــــاني وأدبرت آيسا لظلامي

نجد أن تلك الكلمات الثلاث محملة بإيقاعات متعددة تحمل في طياتها حيرة هذا الشاعر، وعناءه ، وإحساسه بالعجز والفشل والخيبة في مواجهة قضايا الوجود عند تأملها ، فأعياني : تحمل معنى أتعبني وأرهقني ، أي هذا التفكر وأدبرت : تحمل معنى رجعت خالي الوفاض ، خائب السعي ، وتلك كانت عاقبة هذا التفكر وأيسا : فيها ما فيها من معاني الشعور بالقنوط والملل والإحباط أما كلمة ظلامي :فإنها توحي بالانطواء والانكفاء على ما اعتاده في أيامه من عي وجهل مطبق بقضايا الوجود ،كأنه الظلام الحالك ٠

وهناك نوع آخر من الملاءمة يتحقق عن طريق الأصوات وما تشعه بجرسها وحروفها وحروف المد فيها من دلالات للمعنى الذي تدل عليه ويسمى هذا النوع بالإيحاء الإيقاعي ، وقد تعددت الألفاظ الموحية عنده ففي حديثه إلى الشعب يستنهضه ويحركه للثورة ضد المحتل يقول :- [٢]

أين يا شعب قلبك الخافق الحساس ؟ أين الطموح والأحلام

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ٧٣ ٠ (٢) السابق صـ ١٧٥ ٠

نجد أن كلمة "الخافق" تصور بجرسها حركة القلب المضطرب الذي تزيد عدد ضرباته ؛ لانفعال أو إجهاد ، أما كلمة الطموح ففيها ما في وقعها من معنى الارتقاء والارتفاع والتطلع بالنظر إلى ما هو أرقى وأسمى ، كما أنها تحمل معنى الاستشراف والإبعاد ٠ أما كلمة يداس في قوله :- [١]

إن الحياة صراع فيـــــــه الضعيف يداس

فإنها تعطي إطلالة نفسية وضيعة ، وشعورا بالسخرية والاستهزاء من هؤلاء المتوانين المتخاذلين ، الضعفاء ،أما كلمة الجماد في قوله :- [٢]

لا أعني نفسي بأحزان شعبي فهو حي يعيش عيش الجماد

فإنها تدل بحروفها وجرسها على مدى ما وصل إليه أبناء وطنه من جمود وحياة هي أقرب إلى الموت ، ومصير قاتم لا حراك فيه ولا حياة كالجماد ٠

الموسيـــقا ٠

كانت رغبة "الشابي"في الحرية والانطلاق من عقبة القيود التي تحول بيه وبين استقلال أمته دافعا قويا إلى الثورة لا على الأعداء الغاصبين فحسب بل على أشياء كثيرة في المجتمع كان منه ثورته على القوالب التقليدية في موسيقى الشعر وأوزانه فحرر القصيدة في شكلها وصورتها الموسيقية من القيود فرأيناه ينوع في الأوزان والقوافي ، فهو يتفنن في الوزن الشعري ويجدد في موسيقاه فينظم بعض قصائده على صورة توزيع التفعيلة الواحدة في القصيدة بعدد غير معين كما في قصيدته " مآتم الحب " إذ يقول :- [٣]

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٥ ٠ (٢) السابق صـ ١١٤ ٠ (٣) السابق صـ ٢٠ ٠

ليت شعري

أي طيــر؟

يسمع الأحزان تبكـــــي بين أعماق القلوب

ثم لا يهتف فـــي الفجـــر برنات النـــحيب

فهو هنا يتخذ من " فاعلاتن"أساسا لبناء القصيدة ويوزعها في الأبيات فنراة يجعل البيت من تفعيلة ، ومرة يجعله من شطرين كل شطر تفعيلتين،إلى جانب ما يدخل هذه التفعيلة من "الخبن "فتصير إلى فعلاتن وكف فتصير إلى " فاعلات"

كما نلاحظ أنه يستخدم البحور المفردة ذوات التفعيلة الواحدة والتي تتميز بالعذوبة الرشاقة كبحري المتقارب والمتدارك ، وذلك في ثنايا حديثه عن حبه وعواطفه الذاتية غالبا ٠ كما في قوله :- (١)

غناه الأمس وأطربه وشجاه اليوم فما غده

أما في ثنايا حديثه عن الجانب الوطني والاجتماعي فإنا نراه يستخدم البحور الطويلة ، أو المزدوجة ذوات التفعيلتين المكررتين كبحري الطويل والبسيط كما في قوله :- (٢)

لك الويل يا صرح المظالم من غد إذا نهض المستضعفون وصمموا

أما القافية فرأيناه ينوع في القوافي ويعددها في القصيدة الواحدة ، ولا يلتزم قافية واحدة في أبيات القصيدة جميعا وهذا في حد ذاته نوع من التجديد كما في قصيدته "فجاج الآلام" يقول:- (٣)

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٠٦ ٠ السابق صـ ٤٣ ٠ السابق صـ ٦٥ ٠

يـا لا ابتسـامة قلب مطلــولة بـدمــوعه

غاضت فلم تبق إلا الدموع بين صدوعه

****

يا قلب نـهنه دموع الأسى ولوعة روعــك

إن الدهور البواكي غنيـــــة عن دموعــك

****

بيـن القبــور فتاة جــار الزمــان عليــها

فافتك منــها بعنــف كـف الردى أبـويـها

فهو نـوع من الخـروج علـى رتابـة القافيـة الواحدة والنظم علـى صـورة القصـيدة المقطعيـة ،التـي تتشـكل مـن عـدة مقـاطع [١] أو القـوافي المزدوجـة ، كمـا تنوعـت القوافي في شعره وتوسع في استعمالها ما بين المطلقة والمقيدة ، ومن المطلقة مـا جاء موصولا أو مردوفا أو وهذا يدل على أن الموسيقا المنبعثة من القافية واسعة ومتنوعة، ففي حديثه عن الطغاة المتجبرين وتهديده إياهم يقول :- [٢]

فيا أيـها الظالم المصعر خده رويدك إن الدهر يبني ويـهدم

فنراه يختار لأبياته رويا هو الميم المضمومة المشبعة بواو الوصل وذلك ينبئ عن حالة من الفوران النفسي ، واستيقاظ روح الغضب الكامنة في ذاته ٠

وعندما يقول مهددا الأعداء أيضا :- [٣]

رويدك ! لا يخدعنك الربيع وصحو الفضاء وضوء الصباح

فإنه يختار رويا هو الحاء المسبوقة بالألف قبلها رغبة في إطلاق الصوت ،حتى كأنه يرجو أن يتجاوز بصوته حدود السامعين ليسمع الفضاء ٠

---

(١) ديوان أغاني الحياة ١٢٠ ٠ (٢) السابق صـ ١٨٥ ٠

(٣) ينظر جماليات القصيدة المعاصرة د \ طه وادي صـ ٢٧٥ ط ٢ دار المعارف ١٩٨٩ م ٠

وفي حديثه عن الفتاة التي اختطف الموت أبويها فرثى لحالها ورق لمصابها يقول:- [١]

بين القبور فتاة جار الزمان عليها

فنراه يختار رويا هو الهاء الموصولة بالألف بعدها والتي سبقت بياء تسمى ياء الردف قبلها ، فاجتمع فيها حرفي مد الياء والألف ، واشتمال القافية على أكثر من حرفي مد يشكل قيمة موسيقية لها دلالتها التعبيرية ٠

وفي تأمله للوجود من حوله ، وتفكره في الكون يقول :- [٢]

قد تفكرت في الوجود فأعياني وأدبرت آيسا لظلامي

فيختار رويا هو الميم المكسورة والتي نتج عن كسر حركتها ياء هي من أرق الحروف وألينها كما زادتها ألف الردف قبلها لينا وامتدادا يتلاءمان مع حسه الغيبي وتأمله الحائر للوجود من حوله ٠

أما القافية المقيدة فهي قليلة إذا قيست في شعره بالقافية المطلقة ومما جاء منها قوله :- [٣]

إن الحياة صراع فيه الضعيف يداس

وقوله :- [٤] **كرهت القصور وقطانها وما فيها من صراع عنيف**

فالقافية عند "الشابي" واسعة ومتنوعة أعانت إلى جانب الوزن على إشاعة النغم الموسيقي وكان لها دورها إذ انتظمت موسيقا الأبيات وكانت لبنة هامة في بناء شعره ، وشاركت بمضمونها وإيقاعها وكانت ذات صلة وثيقة بعاطفته ٠

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ٦٥ ٠ (٢) السابق صـ ٧٣ ٠

(٣) السابق صـ ١٥ ٠ (٤) السابق صـ ٦٢ ٠

الصورة الفنيـــة ٠

تعد الصورة من أقدر الوسائل على نقل الأفكار العميقة والمشاعر الكثيفة والتعبير عما يجول في النفوس من خواطر وأحاسيس في أوجز لفظ وأقل عبارة وغايتها عرض الحقائق ، وإبراز الوقائع في صورة حية ، ونمط روحي يموج بالشعور، وينبض بالحياة ليس من خلال العناية باللفظ والعبارة والتركيب فحسب بل لا بد من عاطفة وشعور يمتزجان بخيال الشاعر ؛ لأن العاطفة في الشعر هي إحدى دعائمه ، والثانية الخيال ، والفكرة عون لهما [١] ٠

وقد اشتمل شعر "الشابي " على صور بديعة ، ومشاهد وضيئة ، ولمحات من الجمال فاتنة ، يعود بعضها إلى خياله الخصب ، ويعود البعض الآخر إلى ذوق رفيع في اختيار اللفظ ، وتركيب العبارة الممتزجة بحرارة العاطفة ، وصدق الانفعال ٠

ومن هذه الصور ما جاء جزئيا لنقل فكرة محددة ، وتعميق الإحساس بها كما في قوله من قصيدته " يا ابن أمي" :-

خلقت طليقا كطيف النسيم وحرا كنور الضحى في سماه

فهي صورة توحي بما انطوت عليه نفس "الشابي" من طبع فطر على الحرية ، ونفس تواقة لها ، وسعي حثيث نحوها ، فرأى الإنسان في أصل خلقته حرا طليقا ، فتخيله كطيف النسيم الذي يجوب الآفاق ، وكنور الضحى الذي ينير الكون ٠

---

(١) ينظر البناء الفني للصورة الأدبية عند ابن الرومي د \ علي علي صبح صـ ٢٤ ط ١ مطبعة الأمانة القاهرة ١٤٩٦ هـ ١٩٧٨ م ، والأصول الفنية للأدب د \ عبد الحميد حسن صـ ٧٣ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٤٥ م

وهي صورة حيوية ليست مجرد حشد مرصوص من العناصر الجامدة ، بل تتجاوز معناها الحرفي إلى معنى آخر[١] هو الضيق الشديد بالقيود والأغلال، والترغيب في أن يعب الإنسان من نهر الحرية الجاري، إذ خلق حرا فلماذا يقبل الضيم، وخلق طليقا فلماذا يألف القيد ٠

وإمعانا في استكمال جوانب هذه الصورة ، ولتعميق الإحساس بالعاطفة وتجسيم الفكرة ، يضمنها "الشابي" صورة حسية أخرى فيها عنصري الحياة والحركة [٢] فيقول :- [٣]

تغرد كالطير أنى اندفعت وتشدو بما شاء وحي الإله

وقد انتزع "الشابي " هذه الصورة من عالمه الوجداني لينقل للقارئ إحساسه بالحرية والانطلاق ، ممثلا في صورة الطائر المغرد الحر الطليق الذي يشدو بأنغامه في كل فج، ويردد ألحانه على كل فنن، مستمدا وحيه من عالمه العلوي ، علم الطهر والنقاء ٠

وقد تكون الصورة أحيانا صورة كلية تمثل مشهدا خارجيا أو جوا نفسيا داخليا ، وهذا المشد ، أو ذاك الجو يؤلف من صور جزئية تتآزر لتشكل الصورة الكلية ، وهذه الصورة لا تعتمد على الواقع بقدر ما يضيف إليها الشاعر من خياله ما يجعل منها شيئا جديدا في غير تناقض أو تنافر بحيث تكون لدينا صورة جديدة مبتكرة من ذلك قوله :- [٤]

قد كان لي ما بين أحلامي الجميلة جدول

---

(١) ينظر الأدب وفنونه د \ عز الدين إسماعيل صـ ١٤٣ ط ٧ دار الفكر العربي ١٩٧٨ م والأسلوب دراسة بلاغية تحليلية د \ أحمد الشايب صـ ١٩٥ مكتبة النهضة المصرية ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م ٠

(٢) ينظر تطور الأدب الحديث في مصر د أحمد هيكل ص ـ ٣٣٧ ط ٥ دار المعارف ١٩٨٧ م ٠

(٣) ديوان أغاني الحياة صـ ٨٨ ٠ (٤) السابق صـ ٨٨ ٠

يجري بــه مــاء المحبة طــاهــرا يتسلسل

تسعى به الأمــواج باسمة كـــأحلام الصبـا

قد كـان ذلك كـله بـالأمـس ! بالأمس البعيـد

والأمس قد جرفته مقهورا يد الموت العتيـد

فهذه الصورة الكلية تتألف من صور جزئية عديدة تجمع بين المرئي والمتحرك،فهناك الجدول الجاري بماء المحبة العذب ، وهناك الأمواج المتحركة الباسمة ،وهناك أحلام الصبا الوادعة ، وهو تصور الجو النفسي للشاعر وما فيه من قتامة وكآبة وحزن حيث اقترنت في ذهنه كل صور الحب والمشاعر بالموت، أو كأن هذه المعاني جميعها أضحت مرادفة للموت ٠

ويعمد "الشابي" إلى صورة أخرى يرتكز فيها على تصوير الواقع، واقع شعبه مع المحتل الذي وجد في آلام أمته لذة ، وفي عذابها متعة مازجا بين الحقيقة والخيال ، فيقول :-

وشعــوب ضعيفة تتلظى في جحيم الآلام عــاما فعاما

والقوي الظلوم يعصر من آلامــها السود لـــذة ومداما

يتحساه ضاحكا ، لا يراها خلقت في الوجود إلا طعاما !

ففي هذه الأبيات نلمس مدى صدق تعاطفه مع واقع شعبه هذا التعاطف الذي وصل إلى حد الامتزاج بآلامه وتصويره يتلظى بهذه الآلام كأنها نيران الجحيم جاعلا هذا المستبد الظالم يعتصر من تلك الآلام لذة ينعم بها ، وخمرا يحتسيها تشبيها لهذه الآلام بالكرم الذي يتعاطاه أصحاب النشوة والمتعة من الشاربين ، ثم يتجاوز ذلك كله إلى صورة أخرى ساخرة إذ جعل هذا الشارب ضاحكا هازئا كأنه لا يرى في آلام هذه الأمة إلا شرابا ، ولا يرى في وجودها إلا طعاما ٠

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٢٠ ٠

الوحدة في شعره ٠

إن طبيعة الموضوع من الأسباب الهامة التي تهيئ للشاعر نوعا ما من الوحدة ، أو تجعله ينأى بنفسه عنها ويجافيها ، يدل على ذلك أن شعر المراثي الذي كثيرا ما يخلو من المقدمات ، يجعل الشاعر يهجم على موضوعه دون تقديم يهيئ به شعوره لنظم القصيدة ٠

وطبيعة الشعور والإحساس بالمعاني والانفعال بها سببا من الأسباب التي جعلت "الشابي" يندفع إلى موضوعاته الوطنية والذاتية دون تقدمة يهيئ بها شعوره للإحساس بالموقف ٠

فجاء شعره متسما بالوحدة الموضوعية ؛ إذ لا يخرج من موضوع إلى موضوع ليس بينهما علاقة ، بل التزم موضوعا واحدا تدور حوله القصيدة سواء أكان مشهدا طبيعيا ، أو تأمليا أو اجتماعيا أو ذاتيا أو وطنيا ٠

فالوحدة الموضوعية تكشف عن نفسها بوضوح في شعره وقصائده تدور في معظمها حول موضوع واحد يعالج " الشابي " جزئياته بصورة دقيقة ففي قصيدته إلى " طغاة العالم " نراه يبدؤها بموقف هذا المحتل من أصحاب البلاد وكيف سخر منه وتلطخت يده بدمائه فيقول :- [١]

ألا أيـــها الظـــالم المستبد حبيب الفنـــاء عدو الحياة
سخرت بأنات شـــعب ضعيف وكـفك مخضـوبة من دماه
وسرت تشـــوه سحر الوجود تبذر شوك الأسى في رباه

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٨٥ ٠

ثم يتوجه إليه بعد ذلك محذرا من أن صحو الربيع قد يتلوه قصف الرعود ، وضوء الصباح قد تعقبه عاصفة الرياح وأن هذا الرماد الذي يبدو رمادا تحته نار ولهيب مشتعل ويقول :- (١)

رويدك !لا يخدعنك الربيع وصحو الفضاء وعصف الرياح
ففي الأفق الرحب هول الظلام قصف الرعود ،وعصف الرياح
حذار! فتحت الرماد اللهيب من يبذر الشوك يجني الجراح

ثم يدعوه في النهاية أن يتأمل غرسه وصنيعه كيف حصد رؤوس البشر وقطع زهور الأمل ، وروى الأرض بالدماء؟ وأنه سيعود في نهاية المطاف خاسرا متندما يوم لا ينفع الندم :- (٢)

تأمل هناك ! أنى حصدت رؤوس الورى وزهور الأمل
ورويت بالدم قلب التراب وأشربته الدمع ، حتى سمل
سيجرفك السيل سيل الدما ويأكلك العاصف المشتعل

فالقصيدة رسالة حارة وسهم صائب لقلب الطغاه والمستنزفين لدماء الشعوب المغلوب على أمرها وهي قطعة من قلب "الشابي" وروحه ووجدانه الثائر بعد أن أحس بالغبن وشعر بالظلم فانطلق كالسيل الجارف والرعد القاصف ينتفض ثورة ويصدر عن إرادة قوية للحياة وإصرار على مواجهة الظلم

فالوحدة ظاهرة جلية في القصيدة إذ هي في موضوع واحد لم تتعداه وفيها وحدة فنية تنتظمها ومعظم قصائده تتضافر فيها الوسائل الفنية من وحدة الشعور، وترتيب المشاعر، وترابط الأفكار وتسلسلها، لتجعل منها كلا متكاملا متلاحم الأجزاء ٠

---

(١) ديوان أغاني الحياة صـ ١٨٥ ٠ (٢) السابق صـ ١٨٥ ٠

الخـــاتمة

- وبعد هذه الإطلالة السريعة على عالم "الشابي "نستطيع القول بأنـه كـان واحـدا مـن الشـعراء الـذين هيـأتهم عوامـل كثيـرة ومجتمعـة لأن يتجـه فـي شـعره اتجاهـات يعبـر فيهـا عـن آمالـه وأحلامـه ، ويفصـح فيهـا عـن عواطفـه الفياضـة وتجاربه الذاتية ، وانتماءاته القومية والوطنية ٠

- كما كان "الشابي" على الرغم من أوجاعه وعلله صـاحب وجدان ثـائر عبر من خلاله عن مشاعره ، وخاض غمار الطبيعة هروبا من واقعـه ، كمـا حـن إلى ماضيه ومواطن ذكرياتـه وأيـام لهوه وصـباه ، وهذا يؤكد رومانسيته كبـاقي شعراء جيله ٠

- اتجه "الشابي" إلى البحث عن حقائق الوجود متـأملا كثيـرا مـن الأشـياء مـن صـور الكـون والحيـاة ، وأحـوال النـاس فكـان ظامئـا إلـى معرفـة الحقيقـة ، متطلعـا لإدراك مـا غـاب عـن وعيـه ، ولـو قـدر لـه أن يمتد بـه العمـر لرأينـا فكـرا فلسفيا عاليا وحكمة أدبية رفيعة ٠

- اتسم حديث "الشابي" عن وجدانه الذاتي فـي تعبيره عـن المـرأة والحـب بـاللفظ العفيـف والمعنـى المسـتور ، دون أن يـذكر اللفـظ الفـاحش ، أو يتعـرض لشيء من مفاتن الجسد ؛ لأنـه تربـى علـى الأخـلاق الفاضـلة ، ونظـر إلـى الحـب نظرة عفة وطهر وتقديس ٠

-انطلق "الشابي" في ميدان الوطنية انطلاقة تنم عن وعيه بقيمة الكلمة ، وبصيرته بدور الشاعر في الحياة ، ورؤيته لدور الفن في الالتزام بقضايا المجتمع ومشكلاته ٠

- التفت "الشابي" إلى تصوير مظاهر البؤس والحرمان التي يعاني منها بعض أفراد المجتمع عطفا منه على آلامه ،وإحساسا بنبضه ، ومشاركة منه في تخفيف أحزانه ٠

- جاء في شعر "الشابي" ما يشعر القارئ أو المخاطب بالإحباط والتشاؤم والسوداوية أحيانا نظرا لآلامه الحادة ، ولأحوال وطنه السياسية والاجتماعية ، إلا أنه في الوقت ذاته كان يدفع الأمل في النفوس، فكان دائم الحديث عن الحرية والسعادة والأمل والحب والتفاؤل والتفاني والإقدام على الحياة بكل صورها ٠

- حمل "الشابي" لواء الدفاع عن قضايا وطنه ومجتمعه ضد الظلم والقهر والاستعباد فلم يستسلم لأحزانه وآلامه الخاصة بل وقف مناضلا من أجل أهدافه ودعواته الإصلاحية التي آمن بها، وعاش من أجلها وسط مجتمع رجعي تسلطت عله الأمراض الاجتماعية من كل جانب ٠

- يعد "الشابي" شاعرا مجددا في أسلوبه العذب الرشيق ، وفي شكل القصيدة إذ اتخذت القصيدة عنده صورا جديدة في شكلها من ناحية الوزن والقافية ، كما اتسمت في معظمها بوحدة موضوعية وفنية ٠

والحمد لله أولا وآخرا

مراجع البحث

١- أبو القاسم الشابى شاعر الحب والثورة ا \ رجاء النقاش طبع دار القلم بيروت لبنان د \ ت ٠
٢- الأدب أصوله ومناهجه ا \ سيد قطب طبع دار الشروق د \ ت ٠
٣- الأدب وفنونه د\ عز الدين إسماعيل ط ٧ دار الفكر العربي ١٩٧٨ م
٤- الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب العربية د \ أحمد الشايب ط ٧ مكتبة النهضة المصرية ١٣٩٦ هـ ١٩٨٧ م ٠
٥- الأصول الفنية للأدب د \ عبد الحميد حصن مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٤٥ م ٠
٦- الأعلام لخير الدين الزركلي ج ٢ ط ٨ دار العلم للملايين بيروت لبنان ١٩٩٨ م ٠
٧- البناء الفني للصورة الأدبية عند ابن الرومي د \علي علي صبح ط ١ مطبعة الأمانة القاهرة ١٤٥٦ هـ ١٩٧٨ م ٠
٨- تطور الأدب الحديث في مصر د \ أحمد هيكل ط ٥ دار المعارف ١٩٨٧
٩- تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث من ١٨٨١- ١٩٣٨ م د \ حسن أحمد الكبير طبع دار الفكر العربي ١٩٧٨ ٠
١٠- جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث د\ عبد العزيز الدسوقي الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩١هـ ١٩٧١ م ٠
١١- جماليات القصيدة المعاصرة د \ طه وادي طبع دار المعارف ١٩٨٩ م

١٢- دراسات في الشعر العربي المعاصر د \ شوقي ضيف ط ٨ دار المعارف ١٩٥٩ م ٠

١٣- ديوان أغاني الحياة أبو القاسم الشابي منشورات دار الكتب الشرقية تونس ط ١ طبع دار الكتب الشرقية ١٩٥٥ م ٠

١٤- ديوان عبير الأرض فوزي العنتيل ط ١ دار الفكر العربي

١٥- ١٩٦٥ ١٠ ــا لرومانتيكية د \ محمد غنيمي هلال طبع دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧١ م ٠

١٦- الشابي في مرآة معاصريه ا \ أبو القاسم محمد كرو ط ١ بيروت لبنان ١٩٩٤ م

١٧- الطبيعة في شعر المهجرا\ أنس داود الدار القومية للطباعة والنشرد ت

١٨- في الأدب العربي الحديث د \ عبد القادر القط دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠١ م ٠

١٩- مجلة أبولو المجلد الثاني ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ م ٠

٢٠- محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي د \ محمد مندور الحلقة الثانية مطبوعات معهد الدراسات العربية ١٩٨٧ م

٢١- مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث د \ محمد سعد فشوان طبع دار المعارف ١٩٨٠ م ٠

٢٢- المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية ج ١ ، ٢ ط ٣ د \ ت ٠

٢٣- النقد الأدبي د \ محمد غنيمي هلال طبع دار نهضة مصر ١٩٧١